الفصل الأول:

فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء

- تقديم.

1 - تأثيل فكرة القتال عند العرب.

2 - فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية.

3 - نماذج من الأدب والتاريخ العربي الإسلامي.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول:

فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء

ـ قراءة موضوعية لصور من التاريخ والأدب القديم ـ

ـ تقديم:

لما كانت الأمة العربية قد عاشت حالة التحرر من الأجنبي نحو منتصف القرن العشرين، ثم عاشت مرحلة الاستقلال بعده..فإننا نرى أنها تعيش اليوم ـ وهي على مشارف منتصف العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، الذي بدأ بأحداث الحادي عشر من أيلول لعام 2001م ـ حالة من الضياع في الهوية والمفاهيم والثوابت الأصيلة في القيم والعادات.... فالمفاهيم الفكرية والثقافية تعاني أزمة حقيقية على مستوى أبناء الأمة جميعاً، وهي التي مرت بحالات من النهوض الحيوي للقضاء على التجزئة والتخلف والفقر والقهر... وتفاعل الشعب العربي مع الشعوب الأخرى حين اطلع على ثقافتها، واستعار منها ما يحتاج إليه؛ فأضاف وطوَّر، فارتقى بما يملك من دون أن يفقد خصائصه المميزة له، أو هويته المعبرة عن ذاته ووجوده بعيداً عن الاستغراب أو الاستلاب... وكانت الثقافة الإنسانية شهدت رؤى عدة تعرضت لتأثيرات قوية أخذت فلسفة المقاومة إلى أماكن افتراضية جعلتها مدار نقاش مستفيض وبخاصة حين ارتبطت مفاهيم المقاومة بحركات ذات تنظيم فكري سياسي؛ أو فكري ديني، أو مذهبي طائفي...

وقد انتقل هذا كله إلى ثقافة الأمة وما يتعلق بمفاهيم الكفاح الوطني والقومي للتحرر من ذلّ القيد، واستعباد الآخر... وبما أوقع أبناءها بأزمات فكرية شتى.

ثم إن المقاومة العربية ظهرت في عدد من المواقف والحالات منفعلة أكثر منها فاعلة على الصعيدين النظري والعملي، ولاسيما حين برزت العوامل الخارجية ذات تأثير قوي على المستوى النفسي والاجتماعي والثقافي والتربوي، قبل المستوى السياسي والعسكري...

ويبدو لي أن مزاعم الغرب الأمريكي الصهيوني، وغير قليل من الأوربيين حول مصطلحات الجهاد ونظائره بدأت تلاقي قبولاً في نفوس بعض أبناء العرب والمسلمين... فشرعوا يغيرون بنية مناهج التربية والتعليم زاعمين أنها تساعد على قبول الآخر الغربي والانفتاح عليه، والانسجام مع الحضارة الحديثة... ثم وصل الأمر إلى مادة التربية الإسلامية ومناهجها ومفرداتها، إذ نفذ عدد من الأقطار العربية توجهاتهم المعاصرة كما هو حال الجزائر التي أصدرت القوانين التي تراعي المثاقفة مع الغرب؛ والانفتاح عليه.

ثم أخذنا نحاكم عقيدتنا ومفاهيمنا وثوابتنا مستشعرين النقص؛ والعجز وفقدان الإرادة القوية للمواجهة ـ وربما وقع هذا التغيير نتيجة الجهل وعدم الوعي ـ وصرنا نبدل معطيات الفكر الثقافي وأصوله التاريخية الإنسانية... ولذلك كله نرى أن الجهاد ـ عقيدة ومبدأ ـ لم يكن عند العرب يوماً وسيلة للقتل والاعتداء على الآخر وقهره وإذلاله واستعباده؛ وإنما كان نظاماً للدفاع عن الذات؛ وصوناً للحرية والقيم الأصيلة. وكل مثقف منصف يدرك أن فكرة الجهاد اتجهت اتجاهاً إنسانياً حين اتسعت دلالاتها في العصر الإسلامي، وغدت دعوة خَيِّرة للحفاظ على الآخر في إطار عملية تنوير تنتشله من وهدة الشرك والكفر وعبادة الأصنام إلى رحابة الوحدانية والإيمان والتعبد لله الواحد القهَّار... إنها دعوة قائمة على الحوار، ومن ثم القبول أو الرفض الطوعي بعكس ما نجده في التوراة والتلمود وعند الغرب القديم والحديث...

ولّما لزمنا تأثيل فكرة القتال عند العرب منذ أن وجد الجنس العربي، بكل تصنيفاته أو تسمياته، كان لابد من الإشارة السريعة إلى بيان منزلته الكبيرة عندهم في مواجهة الآخر الذي جاءهم في العصر الجاهلي غازياً معتدياً قاتلاً للعربي غاصباً لأرضه؛ منشئاً عليها إمبراطوريته... ومن ثم انقلب مفهوم القتال، أو مفهوم الغزو إلى مفهوم الجهاد بالنفس والمال في العقيدة

الإسلامية، ما يشي بأن الرؤية للتضحيات قد تطورت بين الجاهلية والإسلام.. وهو الذي دفعنا إلى توضيح ذلك وتقديم عدد من صوره الأدبية في إطار من الأحداث التاريخية التي تلبي غايتنا.

1 ـ تأثيل فكرة القتال عند العرب:

يبدو الحديث عن فكرة المقاومة عند العرب القدماء فكرة مرتبطة بالوجود، وإن لم يطلقوا على معاركهم مصطلح المقاومة، ولم يعرفوا الثقافة القانونية التي ابتُكرت على مضي الزمن والأحداث والتجارب الإنسانية؛ ولاسيما المعاصرة منها... فمعرفة الحق الشخصي والجمعي للمواطن والمواطنين؛ والدولة والأمة لم تكن متداولة كما هي عليه اليوم، ولم تتصل يوماً ما في الزمن القديم بما سمي حقوق الإنسان...

وإذا كان فعل (قاوم) قد تردد في اللغة العربية؛ وكذا هو لفظ المقاومة فإنهما لم يشيعا على الألسن، وإنما وجدنا مصطلحات أخرى تسود بين ظهراني العرب في العصرين الجاهلي والإسلامي كالغزو والقتال والحرب والجهاد... وليس العرب فرادى في ذلك فالأمم كلها عرفت أنماطاً من الحروب والغزوات والمعارك والوقائع، وخبرت ويلاتها وآثارها المدمّرة، واختلطت فيها مظاهر الدفاع عن النفس بمظاهر الاعتداء والعدوان، فانتفى ـ غالباً ـ أي عدل فيها. ومن ثم فإن الأحداث التاريخية للمجتمع العربي القديم أصّلت الحقل الدلالي لمفهوم العدوان بالقوة على الآخر؛ بوصفه جريمة ـ يرتكبها المعتدي... ما يفرض على المعتدى عليه مواجهته للحفاظ على النوع الإنساني الوجودي. فإذا كان العدوان يشتمل على عدد من العناصر والمكونات والأركان فإن الناس قديماً وحديثاً تواضعوا من غير اتفاق منظور أو مشهود على أنه خَرْق لقيم الحرية والكرامة الآدمية، سواء وقع من قبل الأفراد أم الجماعات أم الدول[1]... ولذا ليس من مهمات هذا الفصل أن يستفيض بالحديث عن المجتمع

---

[1] لم يكن هناك اتفاق صريح على تعريف العدوان حتى اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة تعريفاً له في قرارها (3314) تاريخ (1974/12/14م) ودورتها رقم (29) ونصت المادة الأولى منه على أن العدوان هو:
==

العربي القديم والمواطن التي استقر بها منذ فجر التاريخ بوصفها مواطن عربية من اليمن إلى ديار بكر في تركيا ـ اليوم ـ فهناك عدد غير قليل من المؤلفات القديمة والحديثة قد تصدت لهذه المسألة...

ومن يرجع إلى تاريخ حلب أو حمص أو حماة أو أريحا أو دمشق ـ مثلاً ـ[1]، يدرك اتصال الجنس العربي في الأراضي التي سكنت فيها الأجيال التي تنتمي إليه على اختلاف التسميات. فأرضه أرض أولئك الأجداد الأوائل من البابليين والسومريين والأكاديين والآراميين والفينيقيين، والكنعانيين والأنباط والحثيين و... ثم جُرْهُم والعَمَاليق الذين نزلوها قبيل العصر الجاهلي، إلى أن نزلتها القبائل العربية من إياد والغساسنة والمناذرة وقيس وبكر وتغلب وكلب وتنوخ و... وفي أسفار التوراة ما يوضح أن يوشع بن نون غزا بعض العرب واعتدى عليهم متجاوزاً حدود الضرورة والوجود والأرض، وانتزعهم من مدنهم الجنوبية مثل أريحا في فلسطين. وقد زور الأحبار كثيراً من الأخبار في سفر يوشع من الكتاب المقدس، فذهبوا إلى أن يوشع بن نون (ت 1186 ق.م) غزا جنوب بلاد الشام وما حولها ومارس أبشع أنواع الإرهاب، وطرد أهلها منها تحت مظلة دعوة الأمر الإلهي لقومه... حيث يقول: "بهذا تعلمون أن الله الحي في وسطكم وطرداً يطرد من أمامكم الكنعانيين والحثيين والحوريين والفرزيين والحِرْجاشيين والآموريين واليبوسيين"[2]، ... ولما هاجم مدينة أريحا مفاجئاً إياها احتلها واستباحها لسبعة أيام؛ بعد أن "هدمها وقتل أهلها جميعهم لم يترك شيخاً ولا طفلاً رضيعاً ولا شاباً ولا امرأة؛ فسالت الدماء أنهاراً. ثم تابع زحفه على بقية مدن فلسطين يعمل السيف والقتل والتدمير"[3]. وعلى شكنا في صحة الخبر وصاحبه أصلاً، لكن من لفّقه يثبت أن قتل اليهود للعرب مباح ومشروع، ولا

(استخدام القوة المسلحة من جانب دولة ضد سيادة ووحدة الأراضي الإقليمية أو الاستقلال السياسي لدولة أخرى أو بأي طريقة لا تتماشى مع ميثاق الأمم المتحدة) انظر الموسوعة الفلسطينية 553/1 – 555.

[1] انظر: معجم البلدان (تبعاً لكل بلد).

[2] الكتاب المقدس: سفر يشوع، إصحاح 3 ـ ص 240 وانظر تجمعات العرب في فلسطين 7 – 11 وانظر ما يأتي 240.

[3] تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم 20؛ وانظر المصدر السابق، إصحاح 6، ص 245 والأبعاد الفكرية والعلمية 9 وما بعدها.

يعيب اليهود أن يوصفوا بالوحشية والهمجية من أجل سرقة أرض الآخر المغاير؛ وقتله. وهذا مؤيد في الإصحاح السادس من سفر يشوع؛ إذ كانت المدينة كلها مستباحة لرّب يشوع ما عدا (راحاب) الزانية التي ساعدت جواسيسه على احتلالها. فهي وحدها التي تستحق الحياة[1]، مكافأة لها على خيانة بني جنسها العماليق الذين أبيدوا في مجازر همجية... وهي مجازر مقصودة لإرهاب الجنس العربي، ولذلك اجتمع العرب كما يثبت السفر نفسه لرد بطش يشوع عنهم حيث جاء فيه: "ولما سمع جميع الملوك في الجبل وفي السهل وفي كل ساحل البحر الكبير إلى جهة لبنان: الحثيون والآموريون والكنعانيون والفرزّيون والحوريون واليبوسيون اجتمعوا معاً لمحاربة يشوع وإسرائيل بصوت واحد"[2]. فهذا الخبر يثبت أن القبائل العربية القديمة تنادت إلى الوحدة ولمّ الشمل لدرء العدوان وآثاره الكارثية التي أزهقت الأرواح وأناخت الجريمة في أرض العرب الحرة الكريمة وقد هجم عليهم الموت فصمموا على مواجهته ودفعه عن أنفسهم.. وما أشبه الليلة بالبارحة فالصهاينة اليوم يمارسون الفعل نفسه مع العرب.

ويذهب الإصحاح الثاني عشر من سفر يشوع إلى تغلّب بني إسرائيل على القبائل العربية بقوة البطش، وسيف القتل فامتد نفوذ بني إسرائيل إلى ، بعض الأراضي العربية من فلسطين وأريحا وجنوب سورية ـ اليوم ـ واحتلوها بالقوة؛ ذاكراً (العربة)[3] تصريحاً، ومما ورد فيه "وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم بنو إسرائيل وامتلكوا أرضهم نحو شروق الشمس من وادي أرنون إلى جبل حرمون وكل العربة نحو الشروق"[4]. وإذا كنا نشك في صحة ذلك كله؛ على اعتبار أن التاريخ الموثّق ينفيه؛ فإننا نستدل من تزوير الأحبار له على

---

(1) انظر الكتاب المقدس، سفر يشوع، إصحاح 6، ص 245. ومعجم البلدان (أريحا ـ حلب).

(2) المصدر السابق، إصحاح 9، ص 250.

(3) العَرَبة: تعني في العبرية (السهول الساحلية) خاصة، والعَرَبة ـ في العربية ـ أرض أولاد إسماعيل، ونشؤوا بَعَربة، وهي من تهامة؛ فنسبوا إلى بلدهم... أما العَرَب فهم أهل البادية ـ كما ذهب إليه بعض القدماء وقال غيرهم: هم أهل الأمصار؛ ثم أطلق على الجميع، أما مصطلح (الأعراب) فقد اقتصر على أهل البادية، على حين أن مصطلح (العَرَبة) صار يعادل العَرَب في دلالته، انظر (لسان العرب ـ عرب).

(4) الكتاب المقدس ـ سفر يشوع، إصحاح 12، ص 257.

بشاعة فعلهم؛ حين يفضّلون تصوير قادتهم بهذه الوحشية. وهذا عكس ما بنيت عليه الثقافة العربية منذ القديم، فكلنا نقرأ في شريعة (حمورابي) أن العين بالعين والسن بالسن، وكذلك نقرأ في تراث العرب الجاهليين أن القتل أنفى للقتل... ومن ثم تبنى الإسلام ذلك وشجَّع على العفو والتسامح مع الآخر المغاير لقوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدّق به فهو كفّارة له﴾ (المائدة 45/5)...

فالعرب منذ فجر تاريخهم جعلوا مبدأ قتال الآخر مقاومة للعدوان ودفاعاً عن الذات وكينونة الأرض والوجود بينما اليهود ـ ومن يساندهم، قديماً وحديثاً ـ امتهنوا مهنة الحروب الشاملة وغزو الشعوب واحتلال أراضيها؛ لا يردعهم خُلُق ولا ضمير؛ فقد كانوا يمارسون قتل الأغيار أو ما يعرف بالغُوييم بكل بشاعة و حقد وفق وظائف يسوغونها لأنفسهم وأبنائهم؛ مهما كانت وحشيتها ... فهم يعتقدون بأن فعلهم مبارك من إلههم إله الحرب المتعطش إلى الدماء دائماً وأبداً... وهم ما زالوا يعمدون إلى هذه المفاهيم لتأصيلها بين أبنائهم من جهة؛ ولجعلها فعلاً استباقياً ذا أهداف عديدة من جهة أخرى...

وكيفما كان بطش بني إسرائيل وهمجيتهم، وأياً كان الزمن الذي مكث فيه الفرس أو الروم في الأرض العربية في الزمن القديم فإن أبناء العرب ظلوا فيها لم يفكروا لحظة واحدة في مغادرتها وإن سامهم الغازي أشد أنواع القهر والذل والعبودية... ثم أثبت التاريخ أن ديار بكر لم يتغير اسمها[1]، ولا تغير اسم حلب والجزيرة العليا أو السفلى، وظل للحرمون شرفه وكبرياؤه وللبنان ألقه... فكنا نجد قبائل بكر وإياد وعبد القيس وآل نصر وطيء وقضاعة... وتغلب وبني مُرَّة ولخم وتنوخ والغساسنة وغيرهم في العراق وبلاد الشام... بينما تمتد قبيلة عاملة إلى مصر وإفريقية... ثم تتوالى الموجات العربية إليها على مرّ الزمان ساكنة فيها، متشبثة بالدفاع عنها...

---

[1] انظر معجم البلدان، (ديار بكر).

ولهذا لم يستطع سابور الجنود بن أَرْدَشير ولا أكاسرة الفرس ولا أباطرة الرومان أن يغيروا هوية الأرض العربية في العراق والبحرين وسورية ومصر... على الرغم من أن عدداً منهم مارس سفك الدماء من دون وازع يرده... فسابور ـ مثلاً ـ استطاع قتل (الضَّيْزن) ملك قُضاعة مع مئة ألف منها، وهدّم قصر (الحَضْر)، ثم أفنى قبائل كثيرة...

وفي ذلك يقول الجديُّ بن الدلهاث[1]:

ألم يحزنك والأنباء تَنْمي ... بما لاقت سَراةُ بني العبيد

ومقتل ضَيْزِن وبني أبيه ... وإخلاء القبائل من تزيد؟!

وسيطر سابور على سواد العراق، ولم يستطع ملك قضاعة أن يغيّر مصيره أو مصير قومه شيئاً، ووقعوا لقمة سائغة بيد من يملك القوة، وصاروا أثراً بعد عين حين تشتت بقيتهم في منازل أخرى نزلوها... وهذا يشير إلى أن القبائل العربية وإن عُرفت بمنازل خاصة بها لم تكن تراها حكراً عليها، إذ كانت تجيز لغيرها أن ينزل فيها، ما يشي بأن مفهوم تحرير الأرض والحفاظ عليها كان يتخذ مفاهيم ودلالات مغايرة لحركة التحرر الوطني التي عرفتها المجتمعات الحديثة. ولا مراء لدينا في أن القبائل العربية القوية كانت أكثر حظاً في الأرض (الوطن) من الضعيفة؛ فهي ـ غالباً ـ معروفة بمنازلها أو لنقل أوطانها التي اقترنت بها وفق الرابطة العصبية لا وفق الرابطة القانونية؛ وحين تغادرها طلباً للماء والكلأ، سرعان ما تعود إليها، كما نستشفه من قصيدة الأخنس بن شهاب، ومطلعها[2]:

لكل أُناسٍ من مَعَدّ عِمارةٌ ... عَرُوضٌ إليها يَلجؤونَ وجانِبُ

لكَيْزٌ لها البَحْرَانِ والسِّيفُ كُلُّهُ ... وإنْ يأتِهَا بأسٌ منَ الهنْدِ كارِبُ

---

[1] انظر معجم البلدان، (حضر).

[2] انظر القصيدة كاملة في المفضليات 193 ـ 194، وراجع الحيوان في الشعر الجاهلي 21.

وبَكْـرٌ لهـا ظَهْـرُ العِـرَاقِ وإنْ تَشَـأ ... يَحُـلْ دُونَهـا مـنَ اليمامَـةِ حاجـبُ

وصـارتْ تَمِـيمٌ بـينَ قُـفٍّ ورَمْلَـة ... لهـا مِـنْ حِبـال مُنْتَـأًى ومـذَاهِبُ

وكَلْـبٌ لهـا خَبْـتٌ فَرَمْلَـةُ عَـالِجٍ ... إلى الْحَـرَّةِ الـرَّجْلاَءِ حَيـثُ تُحـارِبُ

وغَسَّـانُ حَـيٌّ عِـزُّهُمْ فِي سِـوَاهُمُ ... يُجَالِـدُ عَـنْهمْ مِقْنَـبٌ وكتَائِـبُ

وبَهْـرَاءُ حَـيٌّ قـد عَلِمْنـا مكـانَهمْ ... لهـم شَـرَكٌ حَـوْلَ الرُّصـافَةِ لاَحِـبُ

وغـارتْ إيَـادٌ فِي السَّـوَادِ ودُونَهـا ... بَرَازِيـقُ عُجْـمٌ تَبْتَغِـي مَـنْ تُضَـارِبُ

ولَخْـمٌ مُلُـوكُ النَّـاسِ يُجْنَـى إلَـيْهُمُ ... إذَا قـالَ مـنهم قائِـلٌ فَهْـوَ واجِـبُ

فديار مضر تمتد إلى شرقي الفرات نحو حرّان والرقة وشمشاط[1]، أما ديار مذحج فهي في اليمن، والأزد في عمان... وإذا ما انتقلت قبيلة ونزلت بجوار الأخرى اختلط أبناء القبائل وتعرف كل واحد إلى الآخر، فشاعت لديها ظاهرة الخليط التي عبّر عنها الشعر الجاهلي بكثرة، كما نجده في قول زهير[2]:

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا ... وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

ولما قوَّت حياة التبدي (الارتحال في البادية من مكان إلى آخر) مفهوم العصبية القبلية عززت في الوقت نفسه قيم الشرف والحرية والشجاعة والمروءة والنجدة والتسامح والكرم... ولا مكان فيها للجبان الضعيف والبخيل اللئيم... لهذا نشأت لدى العرب قيم خلقية واجتماعية وفق مقتضى حياتهم؛ فنفروا من الظلم والقهر، وكرهوهما وتناذروا إلى حماية الذات القبلية الجماعية، ولو

---

(1) انظر معجم البلدان، (ديار مضر).
(2) شعر زهير بن أبي سلمى 78.

كان لأحدهم رأي مخالف للجماعة؛ كما نفهمه من قول دريد بن الصمة[1]:

وما أنا إلا من غَزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشُدِ

فالقبيلة بكل أبنائها رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباناً يشبون على حب القبيلة والتمسك بقيمها، ويتدرب الفرسان منهم لملاقاة كل معتدٍ يفكر بالنيل منهم وإن لم تبلغ مرتبة الإمارة أو الدولة... كما نستشفه من قول طفيل الغنوي[2]:

وفينا ترى الطُّولى وكل سَمَيْدعٍ مدرّب حرب وابن كل مدّرب

فكل من تسول له نفسه بالاعتداء على القبيلة، والجهل عليها سيلقى العقاب الذي يستحقه ما يفرض على الجميع أن يضعوا أنفسهم مدافعين عنها، مقاتلين من أجل الحفاظ عليها، أياً كانت التضحيات التي يبذلونها كما يقول عمرو بن كلثوم[3]:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالعربي في ذاته كاره للذل والقهر والاستبداد، وهو يرى أن القبيلة ملاذ للحرية والانعتاق، ولكنها لم تكن ـ يوماً ـ مسلطة على القبائل الأخرى مهما كانت قوتها... والدفاع عنها شرف للآباء والأبناء، ولا يرضى بالذل إلا الأذلان (الوتد والحمار الأهلي) كما يقول الشاعر المُتلمّس[4]:

ولن يقيم على خسفٍ يُسام به إلا الأذلاّن عَيْرُ الأهل والوتد

هذا على الخسف مربوط برمّته وذا يشجُّ فما يرثي له أحد

فالعربي أياً كان انتماؤه القبلي، ومهما كانت قوة قومه وكثرة عددهم لم يجعل قدرته سبباً لغزو الآخر المغاير والاعتداء عليه، وإيذاء البريء وترويع الآمنين والأبرياء؛ إذا استثنينا اللصوص وشذاذ الآفاق من الصعاليك والخُلَعاء فعلى الرغم من أن تصرفاتهم تشكل نوعاً من التمرد، أو لنقل نوعاً من مقاومة

---

[1] ديوان دريد بن الصمة، 62.
[2] ديوان طفيل الغنوي 20، وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي 32.
[3] ديوان عمرو بن كلثوم، 101.
[4] ديوان المتلمس، 203 – 211، وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي 32.

النظام القبلي لكنها لا تشكل تقارباً مع مفهوم المقاومة المعاصر... ولذلك كله فإن العربي وضع قانونه الاجتماعي في صميم تفاعله القبلي، والقانون الذي انتظم حياة القبائل بوصفها ممارسة لقيم تنبثق من إطارها الاجتماعي والثقافي... ومن تمام المقاومة الحقيقية الحفاظ على القوانين الاجتماعية والخلقية وعدم الخروج عنها لأنها حماية للمجموع في العرف العربي القديم. ومن ثم تصبح طاعة القانون العام الذي تواضعت عليه القبائل كلها مقاومة لأهواء الذات الفردية التي تتمرد على العقلانية والنظام، لأنها تتمنى ألا تتقيد بقيد... ولعل ما عرفه العرب من قانون اجتماعي قبلي يذكرنا بمفهوم العَقْد الاجتماعي الذي دعا إليه (جان جاك روسو) في العصر الحديث، وإن كان الجوهر يختلف على نحو ما. ولذلك صار من تمام شرف العربي وكمال مروءته أن يغفر لمن أساء إليه وظلمه كما نلمسه في قول ذي الأُصبع العدواني[1]:

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زُرافاتٍ ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا

فالجاهلية ـ بكل ما فيها من أنظمة قبلية مستندة إلى العلة والمعلول في صميم صراعات طبيعية فرضها مفهوم صراع البقاء في أرض قليلة الموارد، شحيحة الأمطار، حتى سمي المطر غيثاً، لأنه يغيث الأرض والحجر والشجر والحيوان والبشر ـ لم تكن لتلغي من نفوس أبنائها الروح الإنسانية في التعامل وتقديس حرية الآخر والمحافظة على حياته إذا ما هددها مَوْتور أو خارج عن القانون... لهذا اتفقوا جميعاً على عدم قبول الخليع الذي تخلعه قبيلته لجرائره الكثيرة عليها[2]. وكان لهم موقف مشابه من الصعاليك اللصوص، وهو

---

[1] ديوان الحماسة، لأبي تمام، 4 ـ 5.

[2] انظر: الأغاني 3/13 وبعدها، وديوان الشنفرى، 57 ـ 68 ولسان العرب ـ خلع ـ.

موقف يختلف عمّا نشأ عندهم من مفاهيم الإغاثة ومسألة الأحلاف لدفع الأذى والظلم عن الذات... وإذا ما هددهم عدو خارجي تسارعوا إلى جمع الصفوف لردّ عدوانه عنهم كما كان أجدادهم من قبل... وقد يكون الأعشى من أفضل من عبّر عن ذلك في قصيدة له يذكر فيها غزو جنود كسرى للعرب في يوم ذي قار، ومما جاء فيها[1]:

وجُندُ كسرى غداة الحِنْو صبحهم ... منا كتائب تزجي الموت فانصرفوا

وخيلُ بكر فما تنفك تطحنهم ... حتى تولّوا وكاد اليوم ينتصفُ

لو أن كُلَّ معدٍّ كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

وبهذا كله أقام الأدب حواراً نوعياً متميزاً ودقيقاً عَبَّر عن النزوع الإنساني الحرّ في نفس العربي وقيمه من أجل مقاومة أي عدوان خارجي تعرض له أبناء الأمة... الذين يرون أنهم ينتمون إلى جذر واحد، وهو الجذر الذي يدفعهم إلى التوحد في مواجهة ذلك العدوان. وهو ما أكدته الوثائق التاريخية التي عززت مفهوم التضحية والبطولة السامية والنبيلة بوصفها دفاعاً عن الذات وحماية لكينونة الوجود الذي يتطلع إلى عيش حر وكريم... فقتال العرب للآخر المناقض لهم أياً كان جنسه لم يكن هدفاً لهم؛ وإنما وقع في كل مرة رداً على عدوان مستفحلٍ جاء ليستأصلهم من أرضهم ويذل شرفهم. فالعرب ما كانوا يقاتلون الآخر حباً في القتال ولكنهم كانوا يدفعون القتل عنهم.

فالمقاومة القبلية الجماعية التي عبَّر عنها اجتماع القبائل سادة وفرساناً وأفراداً كسرت القواعد القبلية الصارمة التي عززت الحفاظ على هوية القبلية الضيقة؛ وهي الهوية التي اتسعت حين تهدد وجود الجنس العربي... وهذا كله وفَّر لمفهوم المقاومة بشكلها القديم عند العرب عنصر الوحدة والتضامن؛ ما عبَّر عن وحدة المقاومة في صميم مواجهة العدوان الخارجي، وعبَّرت ـ أيضاً ـ عن سرعة التكيف الذي عرفته القبائل مع الواقع الجديد؛ والمبادرة إلى وضع

---

[1] ديوان الأعشى، 240 – 241.

الحلول الناجعة لأي طارئ... وكذلك فإن الأدب ـ قديماً وحديثاً ـ لا يكتفي بالحديث عن روح الاستنهاض، والتوحد والمنافحة عن القيم الفاضلة وإنما طفق يبحث عن أشكال المقاومة بالكلمة والموقف. ولذا فإن أدب المقاومة لا يتنفس إلا من رئة مفاهيم القيمة الأصيلة التي تعزز كرامة الإنسان وحريته وحقوقه العامة... وكان يدافع عنها بمثل ما يدافع عن هوية القوم والأمة ويستحضر كل البراهين لبيان حقيقة المعتدي الغازي.

وإذا كانت الصور الأدبية السابقة قد نقلتنا إلى رحاب التفاعل الإنساني المشترك عند العرب فإنها أكدت في آن معاً أن ملامح التغيير الفكري والاجتماعي لمفهوم الغزو أو القتال كانت تميل إلى احترام الآخر؛ وإنصافه. فلا غَرْو بعد هذا الوعي أن يبدع العرب القدماء شعراً متميزاً قيل له: "شعر المنصفات" أنصفوا فيه خصومهم أحياء وقتلى ووصفهم الشعراء بمثل ما وصفوا قومهم في نزوع إنساني راقٍ[1].

ولهذا كله فإن فكرة الغزو/ الاقتتال منذ الأزل عند العرب لم تكن لتلغي من نفوسهم قيم الخير، والشهامة والمحبة ولم يكن قتالهم تهديداً للآخر المغاير واستئصالاً له ـ وإن كان من أجل البقاء ـ فالخطاب الأدبي ظل يرسي في النفس البشرية توجهاً اجتماعياً متحضراً، ونزوعاً أخلاقياً سامياً... وقد برز هذا ـ مثلاً ـ في قول عمرو بن كلثوم في خطابه لتلك المرأة التي فارقته بسبب قتال قومها لقومه... يوم نشبت الخلافات بينهم على الماء والكلأ؛ على حين ظل متمسكاً بها محباً لها، معترفاً بقدرة فرسان قومها؛ فعرضَ لهم منصفاً لشجاعتهم في معركة شديدة اختلطت فيها السيوف والرماح... فهو على شدة عصبيته لقومه لم يكن ليستخف بالآخر، لهذا يقول[2]:

قفي قبل التفرّق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

بيوم كريهةٍ طعناً وضرباً أقرَّ به مواليك العيونا

---

[1] انظر: قصيدة الرثاء، جذور وأطوار، 237 وما بعدها.

[2] ديوان عمرو بن كلثوم، 78، مواليك: أراد أبناء قبيلتها وعمها.

فالقتال في العصور الجاهلية القديمة والمتأخرة عند العرب لم يكن نيلاً من حرية الآخر وانتمائه وشرفه على الأغلب، وإنما كان وسيلة لا بد منها للدفاع عن الذات والقبيلة... وكان الشعراء يعمقون هذه الرؤية وينقلونها إلى الأجيال المتعاقبة لتشكيل رؤاهم الفكرية والإنسانية الثابتة لقيم القتال والغزو عندهم... فقيم الغزو تستند إلى روح إنسانية عالية؛ وإن شابها قلق وتشويه في ممارسة بعض الخارجين عن القانون المتعارف إليه بين القبائل؛ لكن هذا الفعل لم يكن عاماً فيهم... ولو كان عاماً لما بقي وجود لأكثر أبنائها، ولمَّا جاء الإسلام غدا القتال فضيلة يثاب عليها المرء في الدنيا والآخرة باعتباره تحقيقاً للوجود الإنساني ومنافحة عن العقيدة.

ولعل هذا كله ينقلنا إلى فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية؛ وهي فكرة خلقية نبيلة، واجتماعية وثقافية تغذّت اتجاهاتها الإنسانية مما كان عند العرب من قبل...

2 ـ فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية: [1]

لا تختلف الأمم عن الأفراد في السعي إلى تلبية الحاجات وإشباع الرغبات؛ وفي طليعتها الحاجة إلى المعرفة التي تعدُّ أساس تقدم المجتمعات. وتحظى المعرفة ـ بإجماع الناس قديماً وحديثاً ـ بالسعي إلى حيازتها وتطويرها وإفادة كل فرد من الآخر، وكل أمة تختلف عن الأخرى في صميم منهج المثاقفة، والإعارة والاقتراض؛ والتأثر والتأثير...

وتقع المفاهيم والمصطلحات في المراتب المتقدمة من أشكال المعرفة بوصفها تجسد المعاني الجامعة؛ والروح المعبرة عن تميز الفكر الإنساني، وصدقه وموضوعية ما يعطيه لخير الإنسان في كل زمان ومكان... وإذا كانت إرادة القوة والبقاء فرضت وجودها في المجتمع العربي القديم فإن الرغبة الجادة في نشر الفكر الخلقي الذي نزلت به الرسالة الإسلامية المحمدية قد انطوى

[1] انظر الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات (مفهوم الجهاد في الإسلام) 219/1 – 272.

على كثير من الدلائل المرتبطة بالمقاومة السلمية والمادية؛ وبطريقة الإقناع واستخدام الحجة العقلية وبخاصة حين فرض القتال على المسلمين لأسباب عدة... ومن ثم تكثفت فكرة قتال الآخر بالمال والنفس في العقيدة الإسلامية بمفاهيم روحية جديدة، إذ اتسعت صورها ، طبيعة ووظيفة، وأصبحت جزءاً من فكرة المصطلح الجديد (الجهاد) وظل الهدف الأعلى فيها تحرير النفس والإنسان من وهدة الشرك والجهل والتخلف والقهر والظلم... والأخذ به إلى رحاب الوحدانية الإلهية وعبودية الله تعالى لا عبودية الأفراد والأصنام... وبخاصة حين ارتبطت بقيم الشهادة والمروءة...

وبهذا التصور لم تعد فكرة الجهاد مجرّد رؤية كونية وجودية كما كانت فكرة الغزو من قبل، أي إنها ارتفعت لتصبح فعلاً سامياً روحياً خلاّقاً، ونزوعاً إنسانياً تحريرياً على الصعيد الفردي والجماعي... فالجهاد ـ المشتق من الجَهْد ـ يعني قتال المعتدي الخارجي ومواجهته بالنفس والتضحية بها؛ ثم صار الجهاد بالمال نظير الجهاد بالنفس؛ وكلاهما أصبح فرعاً من الجهاد في سبيل الله... ولذا **فالجهاد "محاربة الأعداء... واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل"[1] مثل بذل المال دون أن يسأل عنه الناس؛ وإخلاص النية في ذلك كله، أي أن يكون عمله لله.**

وهذا التعريف لا يشمل قتال الآخر الموافق إلا إذا صال على الذات وهدد وجودها، على أن يكون في سبيل المبدأ أو العقيدة، أي إن هذا النمط من القتال يختلف عما أُطلق عليه الجهاد الأصغر أو (الحِرَابة) عندما تتجلى الأدلة الواضحة للعدوان؛ وتثبت حقيقته[2] لقوله تعالى: 7أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير6 (سورة الممتحنة ـ 39).

ومن هنا نفهم دلالة الحديث الشريف "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله..." بأنه يدل على المشاركة في القتال صيغة (قاتل ـ يقاتل) من جهة، ومن جهة ثانية لا بد أن يكون القتال دفعاً لقتال الآخر الذي بدأ بالغزو

---

(1) لسان العرب، (جهد) وانظر الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات 1/ 228 وما بعدها.
(2) انظر الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات 244/1 – 247 و 252 – 259.

والعدوان[1]. أما الجهاد الأكبر فإنما هو جهاد النفس لتخليصها من أوزارها وآثامها، وتحريرها من ظلمها وشهواتها، ومن ثم علينا استكمال الحديث عن شروط الجهاد كلها؛ نية وإعداداً في القول والفعل.

وبناء على ما تقدم ندرك أن الفضاء الأوسع لمفهوم الجهاد قد ارتبط بفلسفة التفكير المضاد في إطار المفاهيم والحياة، للوصول إلى وظيفة من الوظائف...

ولهذا لابد لنا ـ قبل أن نتحدث عن أنواع الجهاد في الإسلام، لنبرز فيها مفهوم الجهاد بالنفس في ذهن المفكرين والأدباء ـ من أن نتوقف عند تطور دلالته التاريخية في العقيدة ذاتها.

فالإسلام لم يفرض مفهوم الجهاد حباً بالقتل وإراقة الدماء وترويعاً للآمنين كما وجدناه عند يوشع بن نون وغيره من الرموز التي وردت في التوراة وإنما فرضه الإسلام بوصفه مفهوماً يستند إلى ترميم المعاني والقيم لإعلاء كرامة الإنسان وإرساء حريته في الأرض. ومن ثم كرّم الإنسان لقوله تعالى:﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ (الإسراء 70/17). فهو مكرّم بأمر إلهي مهما كان جنسه ودينه، لأن الناس متساوون في الخلق والطبيعة الآدمية ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ (النساء 1/4). فالله خلق الإنسان، علمه البيان، وميّزه بالعقيدة والتقوى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات 13/49). وقال النبي الكريم في حجة الوداع: [أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب؛ أكرمكم عند الله أتقاكم؛ وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد قالوا: نعم. قال فليبلغ الشاهد الغائب][2].

فالإسلام آمن بأن الإنسان هو الأصل المقدَّم على أي شأن آخر؛ وكل شيء مسخر لخدمته؛ فلا غرابة أن يجعل المفاهيم وسيلة فكرية وعملية لصالحه؛

---

[1] انظر الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات 248/1 فقد أفاض في تناول الحديث والشبهة التي دارت حوله.
[2] جمهرة خطب العرب، 157/1.

معززاً الأشكال المعرفية السابقة التي تحقق تلك الغاية، كما وفرت له ريادة حقول جديدة فيها على أن تدعو إلى الحق والعدل في كل زمان ومكان... ولما وهب الله ـ سبحانه ـ الإنسان العقل أراد منه أن يميز الخير من الشر ويختار بينهما ليكون مسؤولاً عن عمله، وترك له حرية الاعتقاد ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي﴾ (البقرة 256/2)...

ولهذا ربط الله ـ سبحانه ـ اختيار الإنسان للعقيدة الإسلامية بإرادته ورغبته؛ فهو حرٌّ عاقل عالم بالحق... ﴿إن الدين عند الله الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم...﴾ (آل عمران 19/3).

فالروح الإنسانية الحضارية في الدعوة إلى الإسلام تجسد فاعلية الارتقاء بنوازع الإنسان وحريته في اختيار عقيدته وتجاوز التتابع الزمني إلى تكثيف المفاهيم التي تثبت أن الحوار بين المسلم والآخر قائم على أساس المساواة لقوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ 24/34)... لهذا دعا ـ عزّ وجلّ ـ المسلم إلى محاورة الآخر المشرك والمغاير بكل لين ومحبة وفق الأمر الإلهي: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن؛ إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين❖ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ (النحل 125/16 ـ 126).

فهذه النصوص تؤصل فلسفة الحوار مع الآخر وفق أسس خلقية إنسانية تهدف إلى إرشاده، وتعليمه لا لقتاله، أو الاعتداء عليه مهما كان الخلاف كبيراً، لأن الله سبحانه رغّب في الصبر والعفو والتسامح، بمثل ما حض المؤمن على الاستقامة وعدم الانجرار وراء النوازع الذاتية، والأهواء المتعددة، لقوله تعالى: ﴿فادع، واستقم كما أُمرت، ولا تتبع أهواءهم﴾ (الشورى 15/42).

ثم شدّد الإسلام على معاملة الآخرين بالحسنى قولاً وفعلاً ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة 83/2)، وأمر الله كل مسلم أن يتقبّل الآخر المشرك ويؤمنه على حياته، بل هو في حمايته حتى يبلغ مأمنه بسلام: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا

يعلمون﴾ (التوبة 6/9).

فالرؤية الإسلامية لاعتناق الإسلام لم تقم على أساس الإكراه والقهر، وإنما كانت دعوة روحية سامية تعتمد قبول الآخر والتحاور معه أياً كانت عقيدته أو جنسه؛ أو... واحترامه... وتندبه إلى الإيمان بالإسلام، من دون عنف أو إيذاء باللسان واليد. ولا شيء أدّل على هذا مما تقدم ومن قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ (يونس 104/10) ويؤكده قوله: ﴿قل يا أيها الكافرون❖ لا أعبد ما تعبدون❖ ولا أنتم عابدون ما أعبد ❖ ولا أنا عابد ما عبدتم ❖ لكم دينكم ولي دين﴾ (الكافرون 109/1 ـ 3 و6).

وأياً ما يكن رأي الآخر وموقفه فإن الناس جميعاً متساوون في مفهوم العقيدة الإسلامية بالإنسانية؛ والطبيعة البشرية وهم مكرمون لهذه الطبيعة وإن لم يتساووا في الدين والإيمان والأخلاق. وهذا الوعي الديني منع كل مسلم أن يظلم الآخر أو يعتدي عليه؛ وحرّم قتله؛ وذهب إلى أن قتله قتل للناس جميعاً ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾ (الأنعام 151/6) و ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ (المائدة 32/5)[1]. وقال رسول الله (ﷺ): [من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة][2]؛ وشدّد على معاملة الناس المعاهدين بكل حب واحترام وأنذر قاتلهم بنار جهنم [من قتل نفساً معاهداً لم يَرِح رائحة الجنة][3] أي لم يشم رائحتها.

ولما نهى عن التظالم بين الناس وقتل بعضهم بعضاً، فإنه نهى عن ظلم الإنسان لنفسه ومحاولة التخلص من حياته؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ (النساء 29/4)[4]. فقاتل نفسه في النار؛ كما ورد

---

[1] انظر: صحيح البخاري 218/7 و3/9 وبعد.
[2] الجامع الصغير، 473/2، رقم الحديث، 8270.
[3] صحيح البخاري، 16/9. وانظر: الجامع الصغير، 544/2، رقم الحديث 8912.
[4] انظر: صحيح البخاري، 57/5، و3/9.

في الحديث الشريف: [ومن قتل نفسه بحديدة عذب بها في نار جهنم][1] و[الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار][2]. فقتل النفس من الكبائر السبع[3].

فالإنسان مسؤول عن إعمار الأرض ورعايتها بالنور والهداية، وحياته مكرمة مصونة في الإسلام لا يجوز أن يتهددها بالأذى والقتل ولا أن يعتدي على أخيه الإنسان، ويقتله، تحت أي ذريعة كانت.

وبناء على ذلك كله يتساءل المرء: لماذا فرض القتال في الإسلام؛ ولماذا دعا إلى مفهوم الجهاد وربطه بالشهادة وجعل جزاءه الجنة؟ ألم يكن الجهاد في سبيل الله وسيلة لقتل الآخر؟!

والإجابة على ذلك طويلة يمكن أن نوجزها بإشارات سريعة إلى الأصول التي بُني عليها الجهاد. فمن يرجع إلى النص القرآني وأسباب نزوله، أو إلى السيرة النبوية الشريفة يدرك بوضوح أن المصطفى (عليه السلام) "لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، إنما كان يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم؛ ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه، ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب من البلاد فراراً من الأذى؛ منهم من كان بأرض الحبشة، ومنهم من كان بالمدينة؛ ومنهم من اتجه إلى أمكنة أخرى. ومن ثم فقد عتت قريش على الله ـ عز وجل ـ ورسوله والمسلمين فكان توجيه الله لرسوله (ﷺ) في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم. فكانت أول آية نزلت في إذنه"[4] ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ (الحج 39/22).

هكذا فرض القتال بعد بيعة العقبة الآخرة[5] دفاعاً عن النفس ورداً للبغي

---

[1] صحيح البخاري، 120/2.
[2] صحيح البخاري، 21/2 وانظر فيه 154/8 – 155.
[3] انظر: الجامع الصغير، 254/2، رقم الحديث 6449 – 6450 و6452.
[4] انظر: صحيح البخاري، 56/5، 65.
[5] انظر السيرة النبوية 97/2 و110 – 111 و267 ومجموعة الوثائق السياسية 49.

والقهر، لقد فرض وهو كره لهم لقوله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم...﴾ (البقرة 216/2).. ولهذا لم يجز الله القتال إلا رداً لعدوان الآخر المحارب أياً كان جنسه أو لونه، أو زمانه، ومنع الابتداء بالعدوان لقوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين❖ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ (البقرة 190/2 ـ 191).

فالإسلام فرض على المسلمين قتال الآخر المعتدي الظالم الذي لا يعرف حقاً ولا ذمة؛... وعلى الرغم من هذا فقد حضَّهم على السلم وإيقاف القتال إذا ما ثاب الآخر المحارب لرشده، لقوله تعالى: ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ (النساء 90/4).

ثم إن الجهاد أمر إلهي لإحقاق الحق والدفاع عن الذات منذ عهد إبراهيم (عليه السلام) ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ (الحج78/22).. لهذا أمر الله نبيه محمداً بجهاد الكفار والمنافقين لما لقيه من أذاهم وظلمهم: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين، واغلظ عليهم﴾ (التوبة 73/9).

وهكذا فقتال الآخر المحارب ـ وهو الذي اصطلح عليه في الإسلام باسم الجهاد ـ ليس بدعة في الإسلام، وهو مؤسس في الديانات السماوية كلها دفاعاً عن الذات والوجود لقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل..﴾ (التوبة 111/9).

لهذا كله أمر الله عباده بإعداد العدة للحرب اتقاء لشر العدو ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون❖ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ (الأنفال 60/8 ـ 61).

ومن هنا جُعِل الجهاد سبباً لردع الآخر المحارب ووقاية لخطره حين أمر ـ سبحانه ـ بإعداد العدّة القتالية، وتدريب الفرسان لتخويف العدو المحارب منعاً من أن تسوّل له نفسه بالنَيْل منهم. وهذا يعني أن مصطلح (الإرهاب) في التصور الإسلامي يحمل فلسفة الدفاع عن الذات والوجود، ولم يكن يوماً ذا دلالة همجية كتلك التي أريد له أن يحملها نتيجة غزو الثقافة الغربية لثقافتنا. فالترهيب والترهب والإرهاب ألفاظ تحمل في موروثنا الفكري والديني كل المعاني السامية المتسامحة، وهي أبعد ما تكون عن الدلائل المرتبطة بالفلسفة الغربية الحاملة لمعاني العنف والإيذاء والقتل[1]، لهذا أجزل الثواب لكل من يقتل في سبيل الله حين لا يقبل الآخر بالسلام ويُذعن للحق ويحافظ على حياة الناس: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون❖ فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون❖ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ (آل عمران 3/169ـ 171).

فالجهاد في سبيل الله وإعلاء القيم الإنسانية النبيلة ارتبط بمفهوم الشهادة لنصرة الحق، ما جعل للمجاهدين والشهداء المنزلة الرفيعة في الدنيا والآخرة ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ (النساء 4/95). وبمعنى آخر لم تكن التضحية بالنفس والمال هواية عند العرب والمسلمين، وما تزال كذلك، فالضعيف الفقير الصادق في انتمائه لوطنه وعقيدته لا يملك أمام القوة الفتاكة التي يملكها العدو إلا أن يضحي بنفسه من أجل أن يعيش أبناء وطنه وقومه بحرية وكرامة. فالعدو الصهيوني الذي استباح فلسطين فقتل قسماً من أبنائها وشرّد عدداً آخر، وانتهك الأرض والعرض هو الذي فرض على أهلها مقاومته بكل الأشكال المادية، ومنها

---

[1] أنظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين 141.

التضحية الجسدية، التي قامت بها فصائل عديدة كالجهاد الإسلامي وحماس والجبهة الشعبية و... ومن ثم صار الفدائي أو الاستشهادي ملبياً لروح حياة الأمة وحريتها ونهضتها... وصارت العمليات الجهادية عمليات مشروعة عند أبناء الأمة. وقد بدأت هذه العمليات تؤثر في العدو، كما اعترف بذلك وزير الدفاع الصهيوني السابق إذ قال: " العمليات الاستشهادية سلاح لا يمكن لإسرائيل القضاء عليه وأن الخيار العسكري الإسرائيلي قد فشل في القضاء على الانتفاضة الفلسطينية"[1]

فالشهيد المجاهد ـ قديماً وحديثاً ـ آمن بفكرة الحرية، والكرامة الإنسانية للذات الفردية وللوطن، ففداهما، فاستحق احترام الأحياء ورضى ربه وعونه، فضمن له الجنة[2]، فأفضل الناس "مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله"[3]، ولهذا تميز من بقية الأموات بأنه لا يغسل فجراحاته طهر له، وقد صلت عليه الملائكة[4].

وفي ضوء ذلك كله فإن ترجمة كلمة الجهاد إلى اللغة الإنكليزية بعبارة (الحرب المقدسة: Holly War) ترجمة ظالمة؛ لأنها خلت من مضمونها الحقيقي ذي البعد الإنساني الذي تحمله في وظيفتها، وأسبابها وأهدافها. وكذلك فإن ترجمة كلمة الشهيد أو الفدائي بعبارة (من قتل نفسه أو فجرها Suicide Bomber) أشد تشويهاً وتحريفاً لمفهومها الإسلامي.. فالغرب لا ينظر إلى الشهيد أو الفدائي إلا برؤية سلبية.. وكأنه يئس من حياته وأراد أن ينهيها بهذه الطريقة.. فالرؤية الغربية لا تنطلق إلا من معين فلسفة أبنائها ولا تعترف إلا بما يجري في مجتمعاتها.. ثم إن مصطلح الشهادة أو التضحية والفداء في سبيل التحرر غدت عند الغرب جزءاً لا يتجزأ من مفهومه حول صراع الحضارات؛ لأنه لم يستوعب مفهوم الجهاد ومقولاته في العقيدة الإسلامية؛ وعند العرب منذ القديم.. فالعرب والمسلمون منذ الأزل لم يكونوا هواة قتل،

---

(1) الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة 156-157.
(2) انظر الجامع الصغير: رقم الحديث 3497 و3502 و3504 و3505.
(3) صحيح البخاري، 18/4.
(4) انظر: صحيح البخاري، 15/1 و114/2 و188/3.

وليس لهم رغبة في قتل أنفسهم، لأن حياتهم أغلى ما يملكونه.. ولأن نفوسهم الأبية الكريمة تكره الظلم والإذلال وتضحي بحياتها من أجل المروءة والعزة والحرية.. ولمن قتل دون ماله فهو شهيد؛ ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد][1].

فالجهاد بالنفس والمال وسيلة لا غاية، وسيلة لتحرير الإنسان من ربقة الذل والعبودية والتخلف والجهل... وإرساء قيم الخير والعدل والمساواة...

ولهذا فهو فرع صغير في دوحة الجهاد القائم على محاربة نوازع الشر في النفس البشرية وتقويم السلوك الخاطئ الذي تسلكه؛ وإن لم يعمل الإنسان على كبح جماح نفسه الغريزية الظالمة غدت خطراً حقيقياً على المجتمع؛ أياً كان جنسه وانتماؤه...

ومن هنا فالجهاد الأكبر جهاد شهوات النفس وقتل رغباتها الشيطانية الشريرة... بل حينما شرع الحج فقد جعل جهاداً لشرور النفس: جهاداً للتخلص من آثامها، كما نستدل عليه من الحديث الشريف: [ألا أدلك على جهاد لا شوكة فيه؟ حج البيت][2]... أما سقاية الحاج وعمارة المساجد ـ على عظمتها ـ فليست مساوية للجهاد في سبيل الله لقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله﴾ (التوبة 19/9). وكذلك عد الصوم جهاداً وحرباً على الفساد والفوضى وضعف الإرادة، والأنانية. ودعوة إلى المحبة والعفو والتسامح..[3].

ولعل ذلك كله يؤكد أن القتال بالنفس والمال ـ على عظمة الأجر والثواب فيه ـ يقع في سلم القيم الأخلاقية بعد جهاد شهوات النفس؛ لهذا قال المصطفى: [الجهاد أربع: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في مواطن الصبر، وشنآن الفاسق] أي كرهه وبغضه...[4].

---

(1) الجامع الصغير، 544/2، رقم الحديث 8917، وانظر صحيح البخاري، 179/3.
(2) الجامع الصغير، 387/1، رقم الحديث 2869.
(3) انظر: صحيح البخاري، 18/4 – 19.
(4) الجامع الصغير 497/1، رقم الحديث 3654.

وعلى الرغم من قيمة الجهاد بالنفس والمال فإن الصلاة قدمت عليه[1]؛ وكذلك قدم عليه الإيمان بالله ورسوله؛ وبر الوالدين، ولو كانا على الشرك لأنهما أصل صلاح الإنسان وإقامة محبته للآخر...

وقد جسدت تعاليم الدين هذا كله؛ لقوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير❖ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ (لقمان 14/31 ـ 15). وقال سبحانه: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً❖ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ (الإسراء 23/17 ـ 24).

ويعد نبي الرحمة أرحب مثال في تطبيق مبادئ الإسلام ولا سيما ما يتعلق بفكرة الجهاد؛ إذ روي أن رجلاً أتاه معلناً رغبته في الجهاد لنيل الشهادة في سبيل الله؛ فسأله: [لك أبوان؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد][2]. فالجهاد لا يصح إلا بموافقة الأبوين، وبرهما مقدم على الجهاد...

تلك هي صورة مكثفة تعبر عن مفهوم العقيدة للجهاد وقد مورس هذا المفهوم بكل ملامحه الإنسانية الرفيعة في عهد النبوة وما تلاه من عصور في سبيل الوصول إلى الشهادة أو النصر. ولم يجعله العرب والمسلمون سيفاً مسلطاً على رقاب الآخرين لتهديدهم وترويعهم أو قتلهم وإذلالهم.

ومن ثم تأكد لنا أن الجهاد الأصغر حقٌّ مشروع للعرب والمسلمين فرضه الواقع الذي عاشوا فيه؛ فكان مواجهة مسلحة لأولئك الذين تسلطوا على الدهر والناس... ثم كان الجهاد الأكبر طاعة خلقية ودينية لنظام الحياة الراقي الذي دعا إليه الإسلام...

ولا يسعني في هذا المقام أن أتناسى مفهوم الشهادة المرتبط بالجهاد، وهو

---

[1] انظر: صحيح البخاري، 17/4 ـ 19.
[2] صحيح البخاري، 3/8، وانظر فيه 2.

التضحية بالنفس والإقبال على الفداء حتى يسقط المقاوم شهيداً في سبيل القضية التي تتوافق مع الحق والعدل... ما يؤكد أن الجهاد مفهوم يختلف تمام الاختلاف عن الإرهاب والعنف اللذين يؤديان إلى إيقاع الأذى والرعب في النفس البشرية لمنافع خاصة، وأهواء مرذولة... وحينما يعدّ مفهوم الشهادة بانياً لحياة المجتمع وحريته وسيادته فإن الانتحار وقَتْل الذات يغدو هادماً لذلك كله؛ وإذا كان الإرهاب يرافق العدوان والظلم على الأغلب فإن المقاومة أو الجهاد يرافق الشهادة التي تؤدي إلى الرحمة بالعباد، والمحبة لهم حين يضحي صاحبها من أجلهم.

ويظل الجهاد ـ على الدوام ـ دفاعاً عن الذات ورد كيد الظالمين الطامعين في الأرض والعرض والمقدرات. وعليه فإن علماء المسلمين شرقاً وغرباً قد شَرَّعوا العمليات الاستشهادية ضد العدو المحتل في فلسطين والعراق ولبنان كما نتج عن مؤتمر بيروت (2002/1/11م) الذي اجتمع فيه نحو خمسين عالماً من بلدان عربية شتى (لبنان وفلسطين والسودان والإمارات والمغرب والجزائر والأردن) وهو تشريع لا يتناقض مع الأحاديث الشريفة التي ذكرناها قبل قليل ولا يختلف عنها في ماهيته.

وقد اعترف هذا المؤتمر بالجهاد الذي يمارسه العرب ضد العدو الصهيوني؛ إذ جاء في إحدى فقرات بيانه ما يلي:" إن حزب الله في لبنان وحركتي حماس والجهاد الإسلامي وسائر قوى المقاومة هي التعبير الحي عن إرادة الأمة، وهي تمثل بجهادها ومجاهديها شرف وعزة وكرامة المسلمين في كل مكان" [1].

وإذا كنا سنخصص فصلين كاملين لمقاومة العدو الصهيوني فإننا نقدم هنا نماذج مختارة من الأدب لبيان أشكال المقاومة عند العرب القدماء والمعاصرين؛ وإبراز مفاهيم الشهادة وآثارها الإيجابية.

---

[1] انظر الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة 160 وما بعدها حتى 175.

3 ـ نماذج من الأدب والتاريخ العربي الإسلامي:

لما جاء الإسلام صهر القبائل العربية في تعاليمه، ومن ثم انضوى أبناؤها تحت رايته الجامعة، وتعاليمه السمحة، وتحوّل انتماؤهم من الانتماء القبلي الضيق، وعصبياته الهوجاء إلى فضاء انتماء إنساني واسع... وآمنوا بأنهم أخوة في الله لقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات 10/49) وعنت الوجوه للحي القيوم، وأخلصوا لدولة الإسلام بقيادة النبي الكريم وفهموا تعاليم الدين القويم، وأدركوا أن الجهاد بكل أشكاله إنما هو إعلاء لكرامة الإنسان وحريته.

لهذا كان أول ما فعله الرسول الكريم حين دخل المدينة المنورة قيامه بالمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، ومن ثم كتابة العهود والمواثيق بين المسلمين وأهل الذمة من اليهود العرب. ومما ورد في كتاب العهد لهم هذه الكلمات: [وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون سائر الناس؛ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين؛ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأَثِم فإنه لا يُوْتِغ [أي يهلك] إلا نفسه وأهل بيته].... ثم عدد كل قبائل يهود ثم ذكر: [وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم...][1].

فالرسول الكريم عاملهم بروح الإسلام فأطلق لهم الحرية في الحياة والعبادة، لا يظلمون فيها، ولا يدفعون جزية أو إتاوة... لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، على أن لا ينقضوا العهد، ويتحالفوا مع المشركين... ولكن اليهود أبوا إلا أن يكونوا غادرين حاقدين، ناقضين للعهود؛ ثم أخذوا يتألبون على المسلمين ويتآمرون عليهم وعلى الرسول الكريم. ولا شيء أدل على هذا من أنه حين جاءهم النبي لأخذ الدية برجل قتلوه ائتمروا به وضربوه بالحجارة،. فما

---

[1] انظر السيرة النبوية، 148/2 – 149 و160 – 163 و254 ومجموعة الوثائق السياسية 59 – 60.

كان منه إلا أن عاقبهم...[1]. ثم مارس اليهود كل أنواع النفاق والخداع والتآمر والكيد للمسلمين حتى آل أمرهم في غزوة الخندق إلى التحالف مع المشركين فأصبحوا ضمن الآخر المحارب؛ فأخرجوا من المدينة المنورة بعد أن حقن الرسول الأعظم دمهم؛ ولم يحاسبهم على ما فعلوه[2].

فاليهود لم يتركوا وسيلة لإيذاء الرسول والمسلمين إلا قاموا بها، ولكنه ما عاملهم بالمثل، وكذا كان موقفه مع مشركي قريش في فتح مكة سنة (8 هـ) وهم الذين أخرجوه منها، بيد أنه عفا عنهم، وأعطاهم الأمان في الإسلام، في خبر مشهور...[3].

ومن ثم أخذ نظام الدولة الإسلامية يتشكل، ويستقيم ويستقر، بوجود قائد ومركز وجيش ودستور، ولمّا تحقق ذلك كله بسرعة قياسية كان العدو الخارجي يتربص بها الدوائر، ولاسيما حين تمثل بتخوف المسلمين من غزو الروم لهم... إذ كان الروم يستخدمون أتباعهم من الغساسنة العرب في ترويع أبناء جلدتهم من العرب المسلمين، إذ جعلوهم شوكة في صدور أبناء جلدتهم[4]؛ وهكذا كان ملوك المناذرة أداة طيعة بيد أكاسرة الفرس ـ والناس على دين ملوكهم ـ كما يقال.

فالجهاد عند العرب والمسلمين كان وقاية للنفس، ودفاعاً عنها؛ وكان سبباً في ولادة جديدة للدولة العربية الإسلامية التي أعادت الأرض العربية إلى وضعها التاريخي؛ ما يؤكد أن الجهاد لم يكن يوماً أداة قهر للآخر المغاير غير المحارب، أو قتل له، لا في عهد الرسول الكريم ولا في عهد خلفائه الراشدين... ولا شيء أدل على هذا من بيان الأسباب التي دعت خليفة رسول الله إلى قتال الفرس والروم.. فلما استقام حال الدولة الإسلامية بعد حروب الردة ارتحلت قبائل عربية كثيرة إلى الشرق والشمال كقبيلة الصحابي المثنى

---

[1] انظر السيرة النبوية، 199/3 – 200.
[2] انظر السيرة النبوية، 224/3 و244 وما بعدها.
[3] انظر السيرة النبوية، 59/4 وما بعدها.
[4] انظر صحيح البخاري، 175/3.

بن حارثة بن سلمة الشيباني الذي مات إثر جراحاته سنة (14هـ/635م)[1] وكانت شيبان وصلت إلى العراق شمالاً، بعد أن سبقتها ـ من قبل ـ قبائل عربية مثل بكر وعبد القيس وتميم وإياد، والمناذرة حلفاء الفرس، وبعض بني طيء؛. وغيرهم كثير. ولكن قدوم العرب المسلمين بقيادة المثنى المسلم لم يرق لكسرى وفرسانه،. وتخلوا عن مهادنة من عرفوه من قبائل العرب المجاورة لهم فأخذوا يعتدون عليها ولا سيما أبناء ربيعة ويؤذونهم "غاية الأذى فلم يزالوا كذلك حتى وقعت بينهم العداوة والشحناء؛ فجعل المثنى يغير على أساورة الفرس ممن كان بناحية الكوفة وسوادها، ويؤذيهم غاية الأذى، وهو يومئذ متمسك بدين الإسلام. وبلغ أبا بكر فعاله... فأرسل إليه... فجعله رئيساً على قومه وبعث إليه بخلعة ولواء، وأمره بقتال الفرس"[2].

فهذا الخبر شديد الوضوح في بيان مفهوم الجهاد/ القتال عند المثنى بن حارثة ثم عند أبي بكر (رضي الله عنه)... فقد فرض عليهما وعلى المسلمين وهم كارهون له، وما وقع إلا دفاعاً عن كينونة الذات والوجود... ومن ثم فإن الخبر يشي بأن بعض القبائل المذكورة كالمناذرة كانت تحت سيطرة القوة الفارسية حتى عهد أبي بكر خليفة رسول الله الذي بدأ تحرير عدد من القبائل وأرضها من يد الفرس إثر تلك الحادثة، كما عبر عنه أحد شعراء ربيعة[3]:

سرنا إلى كلأ العراق وريفه حتى استقر بنا هناك قرار

القحط سار بنا وخيم غيرنا فيها، ولو شاء المسير لساروا

سرنا فقارعنا الملوك فقصروا عنا فأنجد منجد، وأغاروا

وكذلك كان الغساسنة وقبائل عربية أخرى تحت سيطرة الروم في بلاد الشام. فالله سبحانه قد أكرم العرب بالإسلام، ودعاهم إلى إقامة الحق والعدل، وانتدبهم لإعلاء كلمة التوحيد وانتشال أبناء جلدتهم من وهدة

---

[1] الأعلام 276/5.
[2] كتاب الردة، 216 – 217.
[3] كتاب الردة، 216.

الشرك والظلم والعبودية والجهل... فحملهم أمانة الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ولتحرير القبائل العربية من تبعية الآخر المغاير، ولتصبح قيم الخير والعدالة قانون الأرض والسماء. وحينما كانت طاعة الله حظ الأنفس ـ ورضا الرب غنيمة ما بعدها غنيمة ـ لم يجعلوا جهادهم سبيلاً إلى قهر الآخر الذي سامهم أنواع العذاب، وهم يدافعون عن عقيدتهم ووجود العرب في أرضهم وأرض أجدادهم؛ لإيمانهم بحرية الإنسان وكرامته. وهذا ما نستشفه من قول الإمام علي (رضي الله عنه): "أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة... وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة... فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل... فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا"[1].

ولسنا نشك لحظة واحدة في أن دخول العرب المسلمين إلى الشام والعراق لم يكن إلا عودة الفرع إلى الأصل... فالقبائل العربية لم تغادر أرضها في أقسى الظروف القاهرة، بل كانت الملجأ الذي يغتدون إليه ويمكثون فيه مهما كانت الصعاب التي تواجههم مع الغزاة من الروم والفرس الذين كانوا يطمعون فيها لوفرة خيراتها، وتقدم حضارتها... وظلوا يرنون إلى السيطرة عليها...

وهنا يدعونا المنطق العلمي والموضوعي إلى الاعتراف بأن أبناء فارس قد التقطوا بفعالية مرهفة تعاليم الإسلام ومفهومه للجهاد، وأيقنوا بأنه ما جاء إلا للارتقاء بالإنسان روحاً وجسداً... فآمنوا به، وصاروا مادته في الفتوح التي شهدتها أرض فارس، وبلاد ما وراء النهر، في السند والهند...

وهذا يفرض ـ أيضاً ـ علينا الاعتراف بأن ملامح الجهاد وطبيعته قد تغيرت في عهد الدولة الأموية وما بعده، إذ أكدت الأحداث أن العرب والمسلمين ظلوا أرحم فاتح في التاريخ لبلاد السند والروم والأندلس كما اعترف به دارسون غربيون.

---

[1] جمهرة خطب العرب، 427/1.

ولعل هذا يعيدنا إلى الجهاد في عهد أبي بكر ومفهومه وما وقع من اعتداءات على العرب المسلمين في بلاد الشام... وكانوا قد توقفوا عند حدودها الجنوبية في عهد النبوة.

وتشير الأخبار إلى أن بعض القبائل العربية الأخرى كانت صنيعة بيد الروم، وكانوا يغيرون بأبنائها على القبائل العربية في الجزيرة العربية، ثم ظلّ هذا دأبهم في الإغارة على العرب والمسلمين بعد نزول الرسالة، وإشراقها بنور ربها... وإذا كان الآباء والأبناء قد تدافعوا لرفع راية الإسلام ونشر مبادئه السمحة فإنهم لم يعتدوا على الآخر الرومي ولم يكرهوه على اعتناق الإسلام على الرغم من أنه لا يزال قابعاً في أرض أجدادهم الأوائل... بل إن العرب المسلمين ما زالوا يلقون من الروم شراً تلو الشر، ويلقون منهم الأذى المذل... لذا كان لا بد من دفع الظلم عن النفس العربية، وتحرير أرضها المكبلة بإسار القهر الروماني الطويل.

لهذا وقف الصحابي عاصم بن عمرو التميمي المتوفى سنة (15هـ/ 635م) [1] يخاطب المجاهدين في ساحة المعركة قائلاً لهم: "إن هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها، وأنتم تنالون منها منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم، وأنتم الأعلون، والله معكم"[2].

وقد تشير هذه العبارات من الخطبة إلى معان مثيرة، بيد أنها حملت كثيراً من الحض على احترام أهل البلاد، والحفاظ على كرامتهم، كما اشتملت على مبادئ أخلاقية رفيعة تذكرنا بخطبة أبي بكر التي أوصى بها جيش أسامة بن زيد.... ومما ورد فيها: "يا أيها الناس؛ قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا؛ ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد

---

[1] الأعلام 248/3.
[2] جمهرة خطب العرب، 230/1.

فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، وما فرغوا أنفسهم له... اندفعوا باسم الله"[1].

وإذا كانت هذه المعاني تتكرر في وصية أخرى لأبي بكر أوصى بها يزيد بن أبي سفيان وجيشه[2] فإننا نشير إلى مقطع صغير من وصية عمر بن الخطاب للمجاهدين، ومنها: "بسم الله وبالله وعلى عون الله؛ امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحق والصبر. فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين؛ ولا تجبنوا عند اللقاء؛ ولا تمثلوا عند القدرة؛ ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات""[3].

إن هذه المبادئ العظيمة في جهاد العرب المسلمين تحرض ذاكرة المرء على استشعار بشاعة ما فعله يوشع بن نون في بلاد الشام، فضلاً عن فظاعة ما قام به غيره من ملوك اليهود وفق ما أثبتناه سابقاً[4]. وقد ماثلهم في ذلك كلّه الروم الذين هيمنوا على الشام زمناً طويلاً ساموا فيه أهلها كل ألوان العذاب والقهر، في الوقت الذي تذكرنا بأن العرب أينما كانوا في هذه البلاد التي ابتليت باليهود والرومان قد فتحوا مدنهم للفاتحين العرب المسلمين مستبشرين بتحرير أنفسهم من الروم، بعد أن طال بقاؤهم في الأسر، كما شهدناه في تحرير دمشق وحمص وشيزر وحماة وحلب...

ثم إن تعاليم الإسلام السامية في الجهاد تدفعنا إلى تذكّر صورة مناقضة أرستها مقولات ووصايا لحاخامات بني صهيون تناقلوها في كل زمان ومكان لندرك الفرق بينها وبين ما وجدناه عند العرب. فحاخام تل أبيب (حاييم ديفيد) ـ مثلاً ـ يقول: "من حق اليهودي أن يقتل المدنيين العرب العزل بما في ذلك النساء والأطفال والشيوخ، وإن الشريعة اليهودية تسمح له بذلك"[5].

---

[1] جمهرة خطب العرب، 187/1.
[2] انظر المصدر السابق، 196/1 – 197.
[3] جمهرة خطب العرب، 227/1.
[4] راجع ما تقدم 29 – 31.
[5] مجلة الكفاح العربي (عدد 815)، ص 14 وراجع ما تقدم 29 – 31.

وفي ضوء ذلك كله لا يمكن لأحد أن يجعل جهاد العرب المسلمين إرهاباً وعنفاً وقتلاً، واعتداء على حرمة الآخر... وحريته؛ وأمنه، ولم يكن يوماً كذلك، على حين ما زالت أفعال الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني نحو العرب والمسلمين أفعالاً همجية ووحشية... وعلى الرغم من هذا يرفض أن توصف بالعنف أو غيره.

ولما كانت لدينا رغبة جامحة في إجلاء صورة الجهاد عند العرب المسلمين بمعناها الحقيقي والإنساني كان علينا أن نستشهد بالعديد من الحوادث التاريخية والصور الأدبية لعدد من العصور الإسلامية... حتى لا يقال: إن عهد النبوة والخلافة الراشدة لا يقاس عليه؛ فهو عهد استثنائي...

فالجهاد عند العرب المسلمين لم يكن نفياً للآخر المغاير وقتله، ولا لإذلاله وقهره واستعباد الرجال والنساء والأبناء؛ وكذلك هو في إطار جهاد الآخر موافقاً أو مخالفاً ممّن يعيشون في الوطن الواحد... ولعل ظاهرة شكوى الآباء الكبار بالسن بعد أن ضعفت قوتهم وخارت عزيمتهم من أبرز الظواهر في هذا الشأن. فقد رأينا آباء يئنون زفرات حارقة لانخراط أبنائهم في الجهاد وقد خلفوهم وراءهم بلا معين، ولا أنيس... فرفعوا شكواهم أنة ولوعة في قصائد لاهبة فردهم الخليفة إليهم، كما نجده في قصيدة حارثة بن صخر بن مالك أحد معمري بني كلب بن وبرة، وقد أدرك الإسلام وهو شيخ هرم دالف ولم يسلم، على حين أسلم ابنه جناب،ثم هاجر إلى المدينة المنورة فحارثة جزع على ابنه جزعاً شديداً، ثم ذكره بأن قربه أولى له بالثواب من الجهاد، ومما قاله[1]:

تركت أباك بالأدوات كَلاً ... وأمك كالعجول من الظراب

فلا وأبيك ما باليت وجدي ... ولا شوقي الشديد ولا اكتئابي

ثم قال:

أردت ثواب ربك في فراقي ... وقربي كان أقرب للثواب

---

[1] المعمرون والوصايا، 73. وانظر صحيح البخاري 5/8. باب صفة الوالد المشرك.

وتتكرر هذه الظاهرة في عهد عمر غير مرة، ويرفع الآباء شكواهم إليه كشكوى المخبل السعدي (ربيعة بن مالك) ابنه شيبان لذهابه إلى جيش الفتح، ومما قاله[1]:

أيهلكني شيبان في كل ليلة ... لقلبي من خوف الفراق وجيب؟!

أشيبان إن تأبى الجيوش بحدهم ... يقاسون أياماً لهن خطوب؟!

يذودون جند الهرمزان كأنما ... يذودون أوراد الكلاب تَلوبُ

"فلما أنشد عمر بن الخطاب هذه الأبيات بكى ورق له، فكتب إلى سعد يأمره أن يقفل شيبان بن المخبل ويرده على أبيه... فانصرف إليه، ولم يزل عنده حتى مات"[2].

ووجدنا عمر يفعل ذلك أيضاً مع خويلد بن مرة الهذلي وابنه خراش[3] وأمية بن الأسكر وابنه كلاب... وافتتح شكواه باستحضار العاذلة لما يعانيه من حرقة في إحدى قصائده فقال[4]:

أعاذل قد عذلت بغير علم ... وما يدريك ويحك ما ألاقي؟

فإما كنت عاذلتي فردي ... كلاباً إذ توجه للعراق

سأستعدي على الفاروق ربا ... له رَفَعَ الحجيج إلى بُسَاق(*)

إنِ الفاروقُ لم يردُدْ كلابا ... على شيخين هامُهما زَواقِ

فأمر الخليفة سعد بن أبي وقاص برده إلى أبيه، فلما وصل إليه ورآه "قام إليه فاعتنقه، وبكى بكاء شديداً، وبكى عمر رقة لهما"[5].

فهؤلاء الآباء آمنوا إيماناً صحيحاً بتعاليم الإسلام، واستوعبوا عظمة أجر

---

(1) الأغاني، 190/13.
(2) الأغاني، 191/13.
(3) انظر الأغاني، 226/21 – 227.
(4) المعمرون والوصايا، 86. وانظر الأغاني، 11/21، على اختلاف الرواية.
(*) بسَاق: مكان، وروي في الأغاني (دُفُع)
(5) المعمرون والوصايا، 87. وانظر تفصيل ذلك في الأغاني، 10/21 – 12.

الشهادة في سبيل الله... لكنهم أيقنوا بأن بر الوالدين يعدل ذلك، لأنهم كبار السن، وأحوج الناس إلى الرعاية. ولا جدال في أن النفس الإنسانية المليئة بفيض المشاعر، والتي أحست بلوعة الفقد كانت تدفع أولئك الآباء للتعبير عما يحسون به... فالشعور الأصيل عند المسلم يؤمن بقيمة الجهاد، ولكن الشعور الأبوي يفيض حسرة على حال الضعف والشيخوخة التي آل إليها ولا يجد له من معين ما جعله ينطق بتلك العبارات، . وقد حرص الإسلام في الحالتين على ألا يخسر الابن أجر البر بالوالدين، فعد بره لهما جهاداً عظيماً، ما يشي بأن الجهاد بكل أصنافه كان هدفه حرية الإنسان وكرامته.

وهناك صور أدبية أخرى للآباء والأبناء تتمثل بخروجهم جميعاً للجهاد وإعلاء كلمة الله لكن القدر نصب شراكه لهم. فهذا أبو ذؤيب الهذلي يخرج برفقة أولاده الخمسة مجاهدين إلى مصر فيموتون بالطريق سنة (15هـ) بمرض الطاعون فيحزن لهم لأنهم لم يكسبوا شرف الجهاد.... وهذا ما عزز مشاركته في فتح مصر، حتى توفي سنة (26هـ)... وكان قد رثاهم بقصيدة مشهورة[1].

أما صورة الأمهات والأبناء فإن الخنساء (تماضر بنت الشريد) تعد أكثر الصور تعبيراً عنها؛ وكانت الخنساء في جاهليتها وقبيل إسلامها شديدة الحزن على أخيها صخر، وندبته ندباً حاراً في الجاهلية لما فاته من المجد، ثم بكته في الإسلام لما فاته من شرف الإيمان[2]، ولّما شاركت في وقعة القادسية (14هـ) مع أبنائها الأربعة، رأينا موقفها من الجهاد على أحسن ما يتمثله المؤمن صبراً واحتساباً... فكانت صورة للأمهات في كل زمان ومكان... فقد وقفت تخاطب أبناءها، ومما قالته: "يا بَنِيَّ، أنتم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والإله الذي لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم؛ ولا هجنت حسبكم، ولا

---

[1] شرح أشعار الهذليين 1/1 – 7، وانظر ديوان الهذليين 2/1 على اختلاف الرواية، والرثاء في الجاهلية والإسلام 116، وقصيدة الرثاء، جذور وأطوار. 210 وما بعدها، وانظر: فتوح الشام 180/2 في حكاية خالد بن الوليد مع ابنه سليمان الذي استشهد في الشام.

[2] انظر: الرثاء في الجاهلية والإسلام 147 – 148 و153 – 159.

غبرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية... فإذا أصبحتم غدا؛ فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين؛ ولله على أعدائه مستنصرين".

ثم أضاء الصبح، ودخلوا المعركة، وسقطوا شهداء؛ فبلغها خبر استشهادهم فقالت: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"[1].

فالقلوب المؤمنة بالجهاد مسلمة بقضاء الله وقدره، ولكنها متيقنة بأن أجر الشهادة لا يعادله أجر آخر... ولهذا طفقت نفوس الآباء رجالاً ونساء تجسد روح المشاعر الإنسانية النبيلة؛ لأن جهاد أبنائهم ما كان اعتداء على الآخر، ولا إمعاناً في إذلاله... فالألم يعتصر فؤاد كل مسلم حين يجبره الآخر المغاير على محاربته، فما ترك له سبباً غير قتاله؛ وهذا ما نجده في عهد المعتصم العباسي. فقد سام الرومُ العربَ كل أنواع الذل والقهر في الثغور، وسفكوا الدماء، واستحلوا النساء، ما فرض على المعتصم أن يقوم بغزو الروم في معركة شهيرة عرفت بعمورية. وعمورية قاعدة الروم ومدينتهم، وذكرها أبو تمام في شعره ومنه[2]:

يا يوم وقعة عمورية انصرفت منك المنى حُفَّلاً معسولة الحلب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب

فالعرب المسلمون وقفوا عند حدود أرض الأجداد في فتحهم، وما تجاوزوها حتى وجدوا الروم يمعنون في الشر والظلم، واستمروا في الإغارة على ديار الإسلام وترويع الآمنين في عهد المتوكل... فالروم ـ أعداء العرب والمسلمين ـ ماضون بالإفساد والشر والقتل وإرهاب النفوس الآمنة من أبناء قرى الثغور، ما جعله يعد العدة لقتالهم ودفع أذاهم عن العباد المؤمنين... ونال منهم في معركة

---

[1] جمهرة خطب العرب 231/1، وانظر الرثاء في الجاهلية والإسلام، 159.
[2] شرح ديوان أبي تمام، 32/1 – 49.

ذكرها لنا البحتري في مدح المتوكل منها[1]:

وما زالت الأعداء تعلم أنه ... يجاهدها في الله حقَّ جهادها

ولما طغت في دارها الروم واعتدت ... سَفاهاً رماها جعفر بحصادها

أعد لها فرسان جيش عرمرم ... عداد حصى البطحاء دون عدادها

كتائب نصر الله أمضى سلاحها ... وعاجل تقوى الله أكثر زادها

ولعل وقائع سيف الدولة في الروم كثيرة وطالما تعرضوا للعرب المسلمين بالشر والظلم، فكان الروم يجيشون الجيوش للقضاء على دولة بني حمدان... ولكن سيف الدولة كان لهم بالمرصاد يردُّهم على أعقابهم خائبين بعد أن هيأ نفوس الآباء والأبناء للجهاد من أجل الذود عن الذات وحماية راية الإسلام... ومن أبرز القصائد التي عرضت لذلك ما وجدناه في قصائد عند المتنبي، وبخاصة تلك التي تحدثت عن قلعة (الحدث) ومنها[2]:

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم؟!

سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم

وكانت النتيجة قوله:

ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البِيْضُ الخفاف الصوارم

نثرتهم فوق الأُحَيدب نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

ألا أيها السيف الذي لست مغمداً ... ولا فيك مرتاب ولا منك عاصم

هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا ... وراجيك والإسلام أنك سالم

ولِمْ لا يقي الرحمن حديك ما وقى ... وتفليقه هام العدا بك دائم؟!

ولكن شوكة الروم وغيرهم لم تلن قناتها، وتطورت على الدوام، ولم

---

[1] ديوان البحتري، 440/1 – 441.

[2] ديوان أبو الطيب المتنبي، 380/2 – 392.

يكن للعرب والمسلمين إلا أن يدفعوا خطرهم البشع والدائم...

ولعل العصر الأيوبي قد شهد فيه أبناء العرب والمسلمين أعتى هجمة صليبية تجمع فيها كل دول أوربا تقريباً آنذاك... فالحروب الصليبية دامت قرابة قرنين من الزمان (492 ـ 692هـ)، إذ جندت أوربا كل ما تملك تحت راية الصليب متذرعة بحماية المقدسات المسيحية وبتخليص المسيحيين العرب من قهر العرب المسلمين. وشهدت أرض العرب وديار الإسلام من جديد مواجهة حضارية شرسة، ولكنها هذه المرة شاملة وقوية ومسلحة بأعتى الإمكانيات الفكرية والمادية... ومن ثم اجتازوا آلاف الأميال متجهين إلى بلاد العرب غازين لها ـ كما حدث بعد ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين وكما يحدث اليوم من الاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان .... فدنسوا أرضها، وعاثوا فيها فساداً وقتلوا العباد، وزرعوا الفتنة والإغواء في النفوس... إذ جعلوا نساء كثيرات متاعاً لجنودهم، ووسيلة لبيع الهوى، في الوقت الذي جلبوا رهباناً وراهبات لأمور تبشيرية...

ولا شيء أدل على ذلك من شكوى أحد البطاركة سنة (597هـ/ 1191م)، حين قال: "سرنا نحو جيشنا في عكا، فوجدنا جنودنا هناك. وأقولها بكل ألم وحزن قد أسلموا أنفسهم لأفعال مخزية واستسلموا للراحة والشهوة"[1]. وأوضح لنا العماد الأصفهاني أن الفتنة والإغواء كان من صميم التقرب إلى الله عند أولئك النسوة ـ أو هكذا أقنعوهن ـ فقال: "وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة؛ لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة"[2] ويبدو أن هذه الحال ما زالت مستمرة حتى اليوم في عناصر الجيش الأمريكي الذي احتل العراق في (2003/4/9م) كما دلّت عليه الوثائق والأخبار الكثيرة[3].

وإذا كان حال الأمة العربية والإسلامية آنذاك ليس بأفضل من حالها اليوم فإن الله قد قيض لها بعد لأي من الزمان نور الدين الشهيد: محمود بن عماد الدين زنكي (ت 569هـ/1271م) الذي أخذ يهيئ النفوس للجهاد والاستشهاد

---

(1) المرأة الصليبية، دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام، 83.
(2) الفتح القسي في الفتح القدسي، 347.
(3) انظر مشروع القومية العربية إلى أين 196.

لطرد الصليبيين الغزاة، وتحرير بيت المقدس الذي دنسوه بكل ألوان القهر والظلم... ولما جاءه الأجل المحتوم وانتقلت المسؤولية التاريخية إلى البطل صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن أيوب الذي توفي 589هـ/1193م)، آلى على نفسه ألا تضحك له سن حتى يتحرر المسجد الأقصى من ربقة الفساد والطغاة... فحمل راية الجهاد بعد نور الدين الشهيد لرد شوكة المعتدي عن الأرض الشريفة، ووقف إلى جانبه أبوه وأخوته والشرفاء جميعهم مسلمين ومسيحيين... وما زالوا على قلب رجل واحد تحت راية "لا إله إلا الله" وهم يجاهدون الغزاة المارقين حتى انتزعوا النصر المؤزر في معركة حطين سنة (583هـ/ 1187م)، ومن ثم عاد بيت المقدس ليتزنر بحريته ولينتشي بطهارته... على الرغم من أن بعض الفلول الصليبية ظلت هنا وهناك في سواحل الشام تمارس القتل والنهب، كما وجدناه سنة (614هـ/1217م)، حين هاجموا قرى (جبيل، والطور والناصرة)، وسبوا النساء وسرقوا كثيراً من الأطفال الذين وزعوا على الراهبات والأديرة ولكن الأرض العربية سرعان ما تخلصت من آثامهم.

فالجهاد والاستشهاد عند العرب والمسلمين لم يكونا ـ على الأغلب ـ إلا دفاعاً عن الذات المهددة بالفناء، وكذا هو في العهود الأيوبية وما بعدها حتى اليوم، . بينما كانت الدول الأوروبية ـ آنذاك ـ تمارس على العرب والمسلمين أقسى أنماط الإرهاب والقهر والظلم والفساد... وقد عبر عن ذلك الحليم الفاضل في إحدى قصائده التي وصف فيها معركة حطين؛ ومدح بها صلاح الدين؛ ومنها[1]:

أتوا بحبال أبرمت لإسارنا ... فسقناهم فيها قطينا محددا

وساموا تجارا تشترينا غواليا ... فبعناهم بالرخص جهرا على الندا

وجروا جيوشا كالسيول على الصوا ... فاضت غثاء في البطاح مبددا

وقالوا: ملوك الأرض طوع قيادنا ... إذا الكل منهم في القيود معبدا

---

[1] عيون الروضتين، 303/1.

فهذه المقدمة تشبه ما وجدناه عند المتنبي في وصفه لجيش الروم القادم إلى قتل العرب المسلمين، وقد أعدَّ ملوك أوربا كل احتياجاتهم القتالية وجاؤوا غازين حاقدين يظنون أنهم سادة الأرض؛ وظنّوا أن العرب عبيد يباعون في سوق النخاسة، فخاب أملهم، ... لهذا يتابع الحليم الفاضل وصف معركة حطين فيقول:

ووقعة يوم التل إذ قبضت به ... جبابرة الإفرنج حيرى وشردا

عليهم من البلوى سرادق ذلة ... ومن ذَلَّ ماتت نفسه فتقيدا

وما طرق الأسماع من عهد آدم ... كملحمة التل التي ثلّت العدا

وقال عمارة بن علي يمدح صلاح الدين؛ ويبين فضل أبيه في تنشئة المعارك[1]:

أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم ... وأنت له خير النفائس والذخر

فكيف أب أصبحت نار زناده ... وإلا كنور البدر من سنة البدر؟

ولهذا ترى الآباء على طغيان الشيب في رؤوسهم لم يتوانوا في الدفاع عن حياض الأمة وكرامتها في وجه الهجمة الصليبية الباغية... وكانوا يخضبون شيبتهم إمعاناً منهم بإظهار الشباب لزرع الخوف في قلوب العدو الظالم. ففي حصار حصن (الكرك) مضى الأبناء على درب الآباء في الجهاد، وقد توفي في هذا الحصار محمد بن أحمد القادسي؛ بعد أن وصف ما آلت إليه الحال... ومما جاء في شعره معبراً عن ذلك كله[2]:

ولم أخضب مشيبي ـ وهو زين ـ ... لإيثاري جهالات التصابي

ولكن كي يراني من أعادي ... فأرهبه بوثبات الشباب

وإن القارئ للآثار الأدبية التاريخية للعصر الأيوبي يجد أن فكرة الجهاد

---

[1] عيون الروضتين، 142/2 – 143.
[2] عيون الروضتين، 122/2.

لم تكن يوماً في حياة العرب والمسلمين مفهوماً يولد الكراهية والحقد على الآخر المعتدي، وكلما فرضت المصادمة الحربية على العربي والمسلم كان يتصدى لشرورها ورد خطر كل طامع أثيم... لهذا لم يخرج العربي في جيوش الفتح إلى أرض الله إلا بعد أن لقي أشد أنواع البغي والطغيان من الأعداء الذين لم يهدأ لهم بال دون أن ينالوا منه.

إذاً؛ خرج العربي المسلم مجاهداً لانتشال الأمم من ظلم محيق بها وبه، وتحريرها من رق الذل والعبودية واستعباد الآخر... ثم عبر الأدب في مختلف العصور عن الروح الإنسانية السامية لفكرة الجهاد، وساقها أصحابها بأرقى الأشكال الإبداعية الحضارية دون أن يشوهوا صورة الآخر المستبد الطامع في أرزاق الناس وخيراتهم وأراضيهم، وبيع أبنائهم في سوق النخاسة... وقد ظهر هذا في مؤلفات عربية عديدة وعبر عنها الشعراء بكل دقة وتسام كما نراه في أشعار أسامة بن منقذ (488 ــ 584هـ/ 1095 ــ 1188م) في كتابه (الاعتبار)[1] وفي شعر ابن القيسراني محمد بن نصير[2] وكتاب أبي شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ) (الروضتين في أخبار الدولتين)، وتلخيصه (عيون الروضتين)[3] وغير ذلك كثير...

فالنماذج الأدبية تحقق لنا ولادة الشفافية الأخلاقية لمفهوم الجهاد عند العرب والمسلمين، فهو جهاد قائم على احترام انتماء الآخر المغاير وعقيدته وحريته وصون كرامته والتفاعل معه... فهو أخ للمسلم في الإنسانية ولا يجوز امتهان مروءته ولا شرفه بعكس ما كان هذا الآخر يفعله مع العرب ويكتبه عنهم. وليس هناك من يرتاب منا في أن أكثر ما كتبه المؤرخون العرب والمسلمون، وما صوره الأدباء يعبر عن ذلك كله، وإن وقع أحياناً على بعض صور منفرة للآخر في تلك الكتابات والأشعار... ولم تكن هذه الصورة المنفرة

---

[1] حرر كتاب (الاعتبار)، فيليب حِتِّي، جامعة برنستون، 1930م ثم عني به غير باحث، مثل الدكتور حسن الزين ــ طبعة دار الفكر الحديث ــ بيروت ــ 1988م، والدكتور عبد الكريم الأشتر ــ طبعة المكتب الإسلامي ــ دمشق ــ ط2 ــ 2003م وانظر الأعلام 1/ 291.

[2] جمع شعر ابن القيسراني وحققه ودرسه د. عادل جابر، الزرقاء، الوكالة العربية للتوزيع، 1991.

[3] طبع كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في دار الجيل، بيروت، 1974م.

بفعل الكراهية والحقد ـ كما نجده في المؤلفات الغربية عن الإسلام والمسلمين ـ بل كانت بحكم تاريخيتها، ووفق وجودها الحقيقي، كتلك الصور التي عرضوها للنساء الصليبيات اللواتي جلبن لبيع الهوى واللذة والترويح عن الجنود.

في صميم ذلك كله نجد الأدب العربي خاصة والتراث عامة يشكلان الوعي الناضج لحركة الجهاد، وكل منهما يديرها بحوار فكري وعاطفي شديد التأثير، هدفه الحق والحقيقة، وسمته الصدق والتفاعل النبيل مع الآخر لا نفيه لقوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ (التوبة 6/9).

ومن هنا يصبح لزاماً علينا أن نشير بشكل موجز وسريع إلى المؤلفات الغربية الكثيرة من القرون الوسطى كما كتبها المحاربون الصليبيون وغيرهم؛ وإلى التجربة المرة التي شهدتها فكرة الجهاد في الأندلس... وإلى التأثير الكبير للموروث الديني اليهودي التوراتي، في الذهن الغربي وهو التأثير الذي ما زال مستمراً في تشكيل المسيحية الأصولية[1]...

فالمؤلفات التي ورثها الغرب عن الحروب الصليبية مثل (أنشودة رولان) أو (أنشودة أنطاكية)، شوهت ملامح فكرة الجهاد النبيلة خاصة، وصورة العربي عامة؛ حين صورت العربي المسلم بصورة ساخرة بغيضة، جردته من كل قيم الخير والأخلاق... فهو كافر متوحش، قاطع للطريق، ليس جهاده إلا إرهاباً وقتلاً، يذبح بلا رادع أخلاقي وينهب ويسرق، ويفرض الإتاوات على الناس الأبرياء... ولا هم له من جهاده إلا المال واصطياد النساء، والاعتداء على شرفهن... فقد أمعنوا في تشويه الصورة العربية، بمثل ما غيّبوا الكتابات الغربية التي تحدثت عن وحشية الصليبيين الذين أتوا بأفعال مشينة لا نظير لها في التاريخ إلا ما يفعله الصهاينة والأمريكان هذه الأيام. ولعل ما كتبه (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) يكشف لنا عما فعله الصليبيون

---

[1] انظر مشروع القومية العربية إلى أين 156 – 168.

إبان احتلال القدس سنة (492هـ)، ومنه قوله على لسان راهب فرنجي آنذاك:[1] "كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها!!. كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة. وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية!!!. فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث".

ثم استكمل الغرب تشويه الملامح الروحية لفكرة الجهاد بفعل المفارقات الشديدة بين العرب والإسبان نتيجة الحروب الدامية الطويلة التي جرت أحداثها في الأندلس. فإذا تذكرنا أن العرب لم يدخلوا شبه الجزيرة الإيبرية إلا بناء على طلب من بعض أمرائها المقاتلين عرفنا قيمة ما قدموه للإسبان من تسامح بين الأديان في التعامل وممارسة الحرية في العقيدة والحياة. وما كنا لنتوقع من بعض الإسبان تلك المكافأة للعرب التي تجلت قتلاً وقهراً، ولا سيما إبان ما سموه (حرب التحرير)، وإثر خروج العرب من الأندلس مخذولين من قِبل من لم يقدر حضارتهم، ولا سيما حين تجاهل أغلب الغرب والإسبان ما قدمه لهم عهد عبد الرحمن الناصر وما أفادوه من المؤلفات العربية مثل مؤلفات ابن رشد وابن خلدون، ولم يبصروا دلالة غرناطة وقصر الحمراء على مفهوم التفاعل والتحضر والارتقاء... بل شرعوا يغذون أطفالهم بكل حقد على العرب المسلمين، ويشوهون كل قيم الخير والأخلاق التي حملوها إلى الأسبانيين ومن ثمة خططوا لاحتلال المغرب العربي بمساعدة الدول الأوربية ولا سيما فرنسا وألمانيا[2]. ولعل قصة (حكايات إسبانية) للكاتبة (أ. خيمينييث لاندي) من أبرز ما كتبه الغرب في هذا المجال... فقد ظهر العربي المسلم المجاهد في كل حكاية من حكاياتها كافراً غادراً، مهووساً بالقتل من أجل المال

---

[1] انظر حضارة العرب ـ 325، وراجع فيه (ص 326).

[2] انظر صفحات من الجهاد والكفاح العربي ضد الاستعمار ـ ص 35 و 42 – 46 و 82 – 85.

والنساء...[1]، على حين أن هناك فرقاً كبيراً بين ما قدمه العرب المجاهدون وبين ما كافأهم الإسبان به...

ومن ثم أخذت تظهر في الغرب بعد القرن السابع عشر مؤلفات غربية مشبعة بالعنصرية والحقد على العرب والمسلمين، ويكفي أن نشير إلى كتاب شاتوبريان (1768 ــ 1848م)، (رحلة من باريس إلى القدس)، وكتاب غوستاف فلوبير (1821 ـ 1880) (مراسلات)، الذي طبع للمرة الأولى في سنة (1922م)؛ لا سيما الفصل الخاص فيه (رحلة إلى الشرق)[2].

فهذه المؤلفات وأمثالها امتداد طبيعي لمؤلفات الغرب في الحروب الصليبية في القرون الوسطى... وهي مؤلفات نالت من رجل الدين الإسلامي والمسيحي العربي على السواء... فرجل الدين المسيحي العربي القبطي عند فلوبير مدعاة للسخرية الشديدة وعدم الاحترام... بينما صورة المسيحي الغربي صورة متحضرة راقية؛ هدفه الدفاع عن المقدسات المسيحية في الشرق؛ وهي مقدسات فرط بها رجل الدين المسيحي العربي لحساب المسلم كما تزعم تلك المؤلفات.

هكذا بلغ التشويه والحقد مداه في الذهن الغربي لفكرة الجهاد، ولصورة العربي المكافح من أجل وجوده وحريته وعقيدته. وهو تشويه ينطوي على مرجعيات فكرية إيديولوجية، ومادية، ولا سيما ما يتعلق بالمرجعية الدينية التوراتية...

فالصورة الغربية الشمولية والمركبة والمشوهة والظالمة لفكرة الجهاد عند العرب والمسلمين إنما هي نتاج فكري تاريخي طويل الأمد تشكل على مراحل عدة وتأثر أيما تأثر بأدبيات الصهاينة وعقائدهم خاصة، لما يملكونه من نفوذ واسع ومتنوع في أمريكا وأوربا... ومن ثم يسدُّ الغرب أذنيه، ويغمض عينيه عما يفعلونه من جرائم ضد الإنسانية، وهي جرائم تخالف الاتفاقيات الدولية ولا سيما اتفاقية جنيف الرابعة (المؤرخة في 1949/8/12م) والبرتوكول الملحق بها في التاريخ نفسه... ثم يمعن الغرب الاستعماري في سد أذنيه لكي لا يسمع

---

[1] انظر: صورة المسلم في قصص الأطفال الإسبانية (حكايات أسبانيا) أنموذجاً.
[2] انظر صورة العربي في الكتابين المذكورين، د. أميرة عيسى.

ما يتبجح به حاخامات الصهاينة، في فلسطين المحتلة. فحين قتل مستوطن يهودي طفلة فلسطينية أصدر الحاخام (مردخاي إلياهو) فتوى يقول فيها: "إن المستوطن الذي قتل الطفلة العربية عائشة لا يعتبر قاتلاً ولا يجوز محاكمته استناداً للديانة اليهودية"[1]. فالغرب عكس الصورة وجعل العربي قاتلاً وشاذاً وإرهابياً متأثراً بما يؤسسه الفكر الصهيوني في أذهان أبنائه... ولعل سميح القاسم قد بين تصوير الفكر الصهيوني للعربي. فهو "رجل أشعث، حاد النظرات، غدار يخفي في ثيابه خنجراً رهيباً، لا تكاد تدير ظهرك حتى ينقض عليك بطعنة نجلاء، متخلف قاس، همجي، هوايته القتل، سادي، قاتل أطفال، جبان، رعديد، كذاب، منافق، قذر، ساخط، لئيم، حقود..."[2]... وهذا قليل من كثير في تصوير الفكر الصهيوني للعربي كما ظهر في عدد من المؤلفات، ومنها تلك التي ألفها كتاب يهود مثل (إيهود بن عيزر)[3]... ومن ثم فالفكر الغربي يتغذى من الفكر اليهودي في كتبه الدينية، التي عززت فكرة العنصرية والعداء عند الغربي للعرب والمسلمين، وهذا ما انتهى إليه الدكتور عبد الوهاب المسيري[4]. فقد امتزجت التربية اليهودية ومن ثم التربية الغربية بالفكر الإيديولوجي القائم على أرضية عنصرية متنوعة من التوراة والتلمود... ووجهت سموم حقدها إلى العرب والمسلمين في عقيدتهم وحياتهم وقيمهم وعاداتهم؛ وربطت بين تخلفهم وبين الإرهاب إمعاناً في التزوير والتشويه[5].

وبناء على ما تقدم فإننا نشهد في كل لحظة حالة من تزوير الحقائق التاريخية ليس لفكرة الجهاد فقط وإنما لكل القيم العربية والإسلامية؛ وللعرب والمسلمين أنفسهم واتهامهم بأخلاقهم وسلوكهم وثقافتهم وعقيدتهم... فالغرب

---

(1) مجلة الكفاح العربي (عدد 815)، ص 14.
(2) أضواء على الفكر الصهيوني 155 وانظر كتاب (الأدب الصهيوني وتضليل الرأي العام).
(3) انظر كتابه بعنوان (صورة العربي في الأدب العبري) ترجمة د. أحمد حماد – ولاسيما ص47-56.
(4) انظر الإيديولوجية الصهيونية 20 – 22 و50 – 61 و124 – 153 و212 – 214، وراجع كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين 161 – 166.
(5) انظر مشروع القومية العربية إلى أين 141 وما بعدها.

الأمريكي الصهيوني والأشرار من أوروبة يجهدون لقلب الحقائق وتشويه صورة الإسلام ونعته بصفة الإرهاب والقتل والتخلف إذ راحوا يروّجون مصطلح (الإسلاموفوبيا)[1] لتعزيز فكرة الخوف في النفس البشرية من الإسلام. ومصطلح (الفوبيا) ـ ويعني (الرهاب) و (العنف) و (الخوف) ـ مصطلح يرجع في أصوله ومفاهيمه إلى ما يعرف بعلم الأمراض النفسية التي تثير تصرفات عصابية قهرية. وحين يقترن هذا المصطلح بالإسلام فإنما يعزز الخوف والرعب منه، ولاسيما حين تمارس بعض التيارات المتطرفة التي تنتمي إلى الإسلام السياسي كل أشكال العنف الوحشي، وكل صنوف الإرهاب الذي يقزز النفوس ويدمي القلوب... وهذا كله يؤدي ـ طرداً ـ إلى ربط الإرهاب بالعرب والمسلمين، فتزداد كراهية العالم لهم. وقد جرى له أول تعريف في بريطانيا عام (1997م)... وفي هذا العام ظهرت دعوات إلى طرد المسلمين من بريطانيا حين اتهموا بأعمال العنف في أحداث (1997/9/11م)... ثم تكرر الأمر في أحداث (2001/9/11م) في أمريكا حين هاجم المتطرفون بُرْج التجارة العالمي في نيويورك... وربما أسهم المسلمون أنفسهم في زيادة كراهية الأجانب لهم حين تشددوا في رسم صورة الإسلام، وتطبيق تعاليمه على الرغم من أنهم في بيئة الآخرين في أوربا وأمريكا وغيرهما... وإذا كان المصطلح نادر الاستعمال منذ عام (1976م) وعرف في عام (1987م) ثم عام (1994م) فإنه أخذ يؤسس لعنصرية قاتلة ضد العرب والمسلمين؛ وقد فاقمت التيارات الإسلاموية المتطرفة هذه العنصرية وزادتها عداء وكراهية لكل مسلم وعربي، وكأن الغرب المعادي لهما قد وجد ضالته في الأسباب التي يتصل فيها من حقيقة مواقفه ضد الشرق. ومن ثم أصر الغرب على وصم الإسلام بأنه فاشستي، وبأن مفاهيمه متخلفة، أو معادية لحرية الإنسان، ومن ثم تصوير النبي الكريم بأبشع الصور، للإساءة إليه من جهة ولبث الرعب في نفوس الغربيين من جهة أخرى[2] وقد سخَّرت الولايات المتحدة كل ما تملكه هي وحلفاؤها لتشويه صورة العرب والمسلمين، وطفقوا يركزون قوتهم الظالمة عسكرياً وتقنياً

---

[1] انظر سورية الاستهداف والمؤامرة 22 ـ 23.

[2] انظر ظاهرة الإسلاموفوبيا ـ قراءة تحليلية – 31 –35 و 47 –49.

وإعلامياً واقتصادياً لإثبات ذلك، ولا سيما بعد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول (2001م)، إذ أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج بوش الابن بداية جديدة للحروب الصليبية التي كانت بداية التطرف الديني ضد العرب والمسلمين، وظل يعزز هذا الاتجاه دون أن يردعه خلق أو حق... وأطلق عبارته المشهورة (من لم يكن معنا فهو ضدنا) وجيش الجيوش والدول التي فتكت بجسد الأطفال والأبرياء في كل مكان، محاولاً إقناع العالم بأن كل مسلم إرهابي ـ وكاد ينجح ـ مصمم على زرع الخوف والرعب في نفوس البشرية... فوحشية الجيش الأمريكي في أفغانستان والعراق لا مثيل لها في الوصف. ونرى أن ظاهرة الإسلاموفوبيا كانت في جوهرها المبني على الكراهية والعداء للآخر موجهة في المجتمع الأمريكي إلى عدد من الأعراق الغريبة كالسود وبعض المهاجرين من القارات الأخرى...

ولهذا وذاك نتساءل: كيف يستقيم حال العرب والمسلمين وموقف أمريكا والصهيونية على تلك الشاكلة؟ كيف يستقيم حالهم وكان إرئيل شارون ثم أولمرت قد تلقيا الدعم من أمريكا وأشرار العالم ،وراح شذاذ الآفاق يمارسون في فلسطين المحتلة كل لحظة أبشع أنواع الجرائم بحق الإنسانية والإنسان..في حين يزعمون أنهم دعاة سلام وتحضر؟!! لذلك لم يسلم من فسادهم وحقدهم حجر ولا مدر ولا شجر... لا امرأة ولا طفل ولا شيخ، ولم يتفوق عليهم في الحقد على العرب إلا الزمرة اليمينية الأمريكية بقيادة بوش الابن الذي وجه جيشه إلى احتلال العراق في (2003/4/9م) وعاث فيه قتلاً وتدميراً وحصاراً وما زال شعب العراق يعاني الأمرين حتى الساعة؛ إذ فقد من أبنائه ما يزيد على (700) ألف حتى (2007/5/1م) على حين هربَ من ظلم ذلك الاحتلال إلى مختلف دول العالم ما يزيد على (7) ملايين منهم أربعة ملايين في الدول المجاورة للعراق. وحين خرج الجيش الأمريكي من العراق عمّق روح الفرقة الطائفية والمذهبية بين العراقيين؛ فاستشرى الإرهاب والتطرف بينهم؛ وشرع عدد من ضحايا السيارات المفخخة والانتحاريين الجهلة يترحمون على أيام الاحتلال...

هكذا نتساءل: كيف يستقيم أمر العرب والمسلمين وهم يئنون تحت

ضربات الكراهية والحقد والعداوة، بدل مقاومتها ومواجهة صانعيها؟! ومن ثم من سيصدق أن بإمكان العرب التعايش المشترك مع الصهاينة، علماً أن هناك قسماً آخر قبل علناً بحماية أمريكا التي جاءت للتحكم بمقدرات الأرض العربية ووجودها؟!! أما موقف الإدارة الأمريكية بقيادة بوش الابن فكان صريحاً في العداء للعرب والمسلمين... ومهما كانت عظمة مآسي الإدارة الأمريكية فإنها لم تؤثر في توجهات بعض الحكومات العربية، وكأن مسؤوليها لم يسمعوا تلك التصريحات التي أعلنت بجلاء أن الخطر القادم على أمريكا والغرب يتمثل بالإسلام..

لذلك كلّه نقول: لا يستقيم الظل والعود أعوج، فلا بد من العودة إلى التمسك بقيم الجهاد، وكينونة الوجود الإنساني الفاعل... ولا سبيل لرد أي قهر أو بغي أو اعتداء بغير ثقافة المقاومة وتأسيس الوعي والعمل بها؛ إذ لا مناص لأمتنا عنها... لأنه كما يبدو لنا بكل وضوح أنها أضحت ضرورة حتمية ووجودية وهذا ما يعرض له الفصل الثاني الذي يتناول (المقاومة: الفكر والجدوى).

obeikandl.com